أندرسن

رائد أدب الأطفَال

تأليف

عبدالله حسين

الكتاب:أندرسن .. رائد أدب الأطفَال

الكاتب:عبدالله حسين

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

حسين، عبدالله
أندرسن .. رائد أدب الأطفَال / عبدالله حسين
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٤٩ ص، ١٨*٢١سم.
الترقيم الدولى:٣ – ٢٣٦ – ٩٩١– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع :١٠٠٠٤ / ٢٠٢١

أندرسن

رائد أدب الأطفَال





الفصل الأول

حياة هانز كريستيان أندرسن

«الواقع أن حياتي تبدو لي مثل القصة الأسطورية، مملوءة بالأحداث، حافلة بمختلف الألوان: فلقد خبرت الفقر والوحدة والحرمان وتنقلت بين أبهى الأوساط وأرقاها، ولقد مارست المهانة والتكريم..»

أندرسن

مقدمة

إن أول ما يسترعي نظر الزائر لمتحف هانز كريستيان أندرسن في مسقط رأسه (أودنز) هو ذلك العدد الضخم من الطبعات التي نشرت فيها أقاصيصه بجميع لغات العالم. وليس العجيب في الأمر هو عدد اللغات التي ترجم إليها أدب أندرسن، بل أن المسترعي للنظر حقا هو أن المطابع ما تزال حتى الآن تخرج طبعات حديثة لقصصه.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن أعمال هانز كريستيان أندرسن ما زالت أدبا حيا خالدا تجاوز قيود الزمان والمكان.

ولا يفوت القاريء لهذه الأعمال أن يلحظ ما كان يتسم به أندرسن من احساس مرهف وأدرك دقيق لكوامن النفس البشرية، إلا أنه يبدو أكثر انعطافا إلى أولئك القابعين في الجوانب المظلمة للمجتمع الإنساني،

لأنه كان يحس أنهم صورة للبيئة التي انبثق منها.

وتعتبر تجارب أندرسن الشخصية من أهم العناصر التي تلقي الضوء على كتاباته، وكان هو يصرح عادة بأن هذه القصة أو تلك مبنية على إحدى التجارب الكامنة في أغوار عمره، وما كان أزخر ذلك العمر بالتجارب والأحداث.

ولقد أدرك أندرسن التفاعل الوثيق بين حياته وفنه فاحتفظ في أمانة واخلاص بكل شاردة وواردة، وكل ذكرى يمكن أن تفيد في إلقاء الضوء على حياته. ولا يعني ذلك أنه اهتم فحسب بتسجيل شهادات التقدير والاعتراف التي انهالت عليه في أواخر أيامه في جميع أنحاء أوربا، ولكنه خلف مجموعة من الأجندات والمفكرات الشخصية، واحتفظ بالخواطر التي كان يدونها في أسفاره، بل وبالزهور التي كانت تذكره بالأحداث الأثيرة إلى نفسه.

على أن أهم عون للدارسين لحياة أندرسن وفنه كان تلك التراجم الذاتية وأهمها «كتاب حياتي» سنة ١٨٣٠ وكتاب «قصتي بدون خيال» الذي ظهر بالألمانية سنة ١٨٤٧ وكتاب «أسطورة حياتي» الذي صدر سنة ١٨٥٥.

ولقد عرض أندرسن في هذه الكتب قصة حياته التي تضارع أعجب القصص الأسطورية، ولن أتعرض هنا للتفاصيل الدقيقة في سيرته فإن هذا يتطلب مجلدات كاملة ولكني سأرسم الخطوط العريضة لتلك الحياة التي بدأت وسط أسرة معدمة في أحد أزقة الدنمارك وانتهت به وقد أصبح

أعظم كاتب من نوعه في أوربا ومن صفوة كتاب العالم على الاطلاق، سأرسم هذه الخطوط بالقدر الذي يسلط الضوء على مكانته الأدبية ويعطينا صورة واضحة لفنه.

***

أيام الطفولة

كان عدد سكان (أودنز) في بداية القرن التاسع عشر خمسة آلاف نسمة، ومع ذلك فقد كانت هذه المدينة هي ثاني مدينة في الدنمارك، كما أنها كانت صورة حقيقية للمجتمع الدنماركي في ذلك الوقت بما فيه من جوانب طيبة وسيئة.

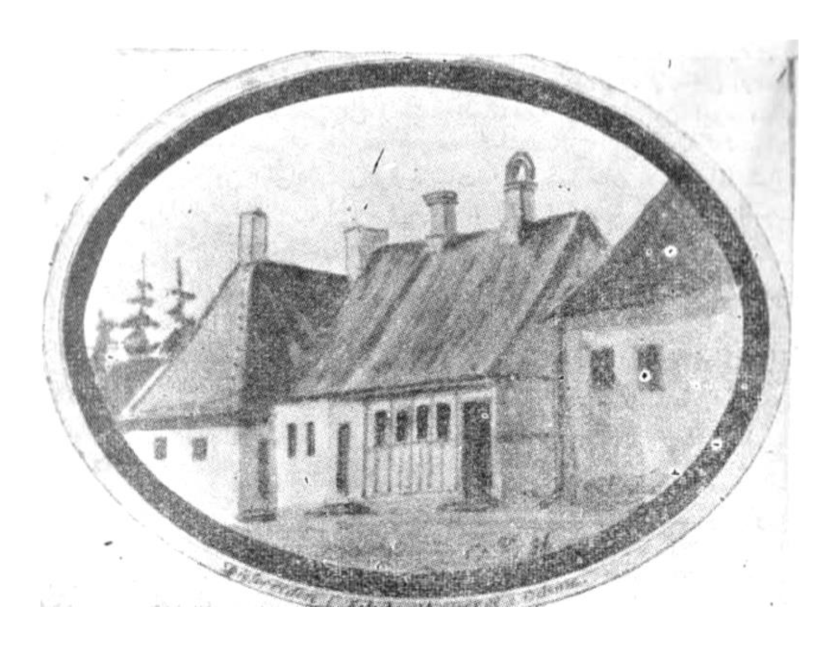
ففي أودنز كانت المنازل الاستقراطية الأنيقة القائمة على الشوارع النظيفة المهددة إلى جوار الأزقة المظلمة والحواري الضيقة الكئيبة التي تعج بالطبقات السفلى من أصحاب الحرف والعمال الذين يبقون بلا عمل أغلب أيام السنة. هذا إلى جانب جحافل الشحاذين والنساء اللاتي يرتزقن من غسل ملابس الآخرين.

ولقد كانت الحياة شاقة بالنسبة لهؤلاء جميعا، ولم تكن المنظمات الصحية والاجتماعية قادرة على أنقاذ مثل ذلك العدد الضخم من وهدة المرض والفقر.

في قلب هذه الطبقة ولد هانز كريستيان أندرسن في الثاني من أبريل عام ١٨٠٥ كان والده يعمل اسكافيا، وكانت أمه تكبر أباه بخمسة عشر عاما. وأترك المقام هنا لهانز كريستيان أندرسن ليقدم لنا صورة للبيت الذي

ولد فيه وأمضى به زهرة أيام الطفولة:

«كان بيت طفولتي يتكون من غرفة واحدة يحتل جزءاً كبيراً منها (البنك) الذي يعمل عليه والدي، وكان بجوار (البنك) سرير ثم المتكآ الذي أنام عليه. وكانت الجدران مزدانة بمجموعة من الصور الجميلة. وعلى الرفوف عدد من الفناجين والأكواب الزجاجية وعلى رف آخر بعض الكتب. وفي المطبخ الصغير رف فوقه عدد من الأواني والصحاف اللامعة. لقد كانت هذه الغرفة الصغيرة الضيقة تبدو في نظري كقصر منيف بما ذلك هو الاطار الذي أحاط بطفولة هانز كريستيان أندرسن كما صوره بنفسه، وبالنظر إلى الأوصاف التي ذكرها أندرسن لوالديه نجد أن بعض الملامح التي تميزت بها شخصية أندرسن الأب قد تسللت إلى طبيعة الأبن فلقد كان الأب غير موفق في حرفته كما أنه فشل في مواصلة الدراسة، ولم يكن اجتماعياً بطبعه بل كان ميالا للعزلة، فكان يهرع كل يوم أحد إلى الغابات جيث يجلس صامتاً مستغرقاً في تفكير عميق. على أنه برغم ذلك كان يولى ابنه جزءاً كبيراً من وقته وحبه فيقرأ روايات (لأفونتين) وشعر شكسبير، وقصص ألف ليلة وليلة وهزليات (هولبرج)، وكان يصنع له اللعب التي كان يلهو بها.



بيت الطفولة في «أودنز»

وبينما كانت أمه اجتماعية بطبعها، تميل إلى التعرف إلى الجيران، متواضعة لا تعرف معنى الكبرياء، كان أبوه الأسكافي مترفعاً مكرساً جل وقته وعواطفه لابنه الصغير وكان مفعم النفس بالآمال والأحلام دائم الشرود والقلق.

والتحق الأب بالجيش متطوعا عام ١٨١٢. ويعزو الابن هذا التصرف من والده إلى التحمس الخيالي لنابليون، ولكن يبدو أن العامل المادي كان له أثر في اتخاذ هذا القرار من جانب الوالد.

وفي عام ١٨١٤ عاد الوالد مريضا محطما ثم مات بعد ذلك بعامين، وكان هانز حينئذ قد بلغ الحادية عشرة من عمره. وتبدو الأم– من أوصاف ابنها– امرأة بدينة تنتمي إلى الطبقة العاملو. وبينما كان أبوه متأثرا

بروح العصر بما تتسم به من معالجة عقلية للمسائل الدينية، كانت الأم غارقة في موجة الخرافات والروحانيات. وبينما كان الأب حالما شاردا كانت الأم واقعية في أمور الحياة اليومية، وقد ترك لها أمر إدارة البيت، وكثير ما كانت تستعين على ذلك بغسل الملابس في البيوت.

وكان لهانز جد مصاب بالجنون مما جعل الطفل هدفا سهلا لسخرية الغلمان وتهكمهم.

ويتحدث هانز عن طفولته فيقول: «لقد كنت طفلا كثير الشرود وكنت أهيم في الطرقات وقد أغلقت عيني حتى أعتقد الناس أن نظري ليس على ما يرام برغم أنه كان وما يزال حادا لدرجة غير عادية».

وأكثر ما كان يبهجه الجلوس وسط الأشجار تحت الخيمة التي صنعها من أحد أثواب أمه. وكان يتابع بشغف زائد نمو الأوراق الخضراء منذ ظهورها إلى أن تسقط صفراء جافة. وأحياناً ان يهرع إلى (طاحونة القس) حيث يجلس ساعات طويلة ويحملق في المياه المندفعة فوق عجلات الطاحونة الهائلة. وكان وهو جالس في هذا المكان يسرح بخياله في الصين التي أعتقد أنها فيما بعد النهر، وفي الأمير الذي سيأتي ليصطحبه إلى امبراطوريته. ولقد أدى هانز كريستيان أندرسن في مذكراته الدور الذي أدته الخرافات والأساطير في تكوينه الفني، ولا ريب فقد عاش طفولته في جو مشحون بتلك المعتقدات، وزاد من حساسية الطفل ما كان يلمسه من فقر ومرض وعجز يظلل الوسط الذي ولد فيه، كما أن زياراته لجده في مستشفى الأمراض العقلية ملأت عقله بالرعب الذي كان يخشى معه

مغادرة البيت بعد غروب الشمس.

كل هذه العوامل خلقت من الطفل المرهف إنسانا غريب الأطوار وأبعدته عن زملائه في المدرسة وجعلت أيام دراسته قاسية مريرة، وخاصة أنه لم يكن ينجو من عقاب أمه لعجزه عن مساعدتها– أسوة بسائر الأطفال– بالعمل في أحد المصانع. ولقد حاول الصبي أن ينصاع لرغبة أمه، ولكن طبيعته الحساسة لم تحتمل ما في هذه الأماكن من عنت وقسوة وفساد، فلم يكن يبقى بالمصنع وقتا طويلا حتى يتركه إلى آخر للأسباب نفسها.

وكان البيت إذن خير مكان يجد فيه سعادته، فهناك في مقدوره أن يسلي نفسه بمسرح العرائس الذي صنعه أبوه من أجله. ولقد ازداد شغفه بالمسرح منذ أن شهد مع والديه عرضا لإحدى الأوبرات على مسرح (أودنز). وفي المسرح أحس هانز أنه يشرف على عالم جديد، ولم يكف هذا العالم عن جذبه من قلب الواقع الذي يعيش فيه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

ومهما حاولنا أن نحرر أنفسنا من الصورة المثالية التي رسمها هانز كريستيان أندرسن لطفولته، فإن هناك صفة واحدة لا يمكننا أن نتجاهلها وهي صفة الطفل الحالم، الطفل الخيالي الذي كان يسعى إلى انتشال نفسه من هذا الجو الذي فتح عينيه فوجده مطبقا عليه من كل جانب، الطفل الذي يثق ثقة لا يتطرق إليها الشك في العناية الألهية التي سوف ترعاه وتحقق له ما يبغي. ولقد ساعده هذا الإيمان في التغلب على الصعاب التي

اعترضه طول سني عمره.

وفشلت الأم والجدة في الوقوف أمام هذا التيار المنبثق من بين حنايا الغلام، ويئستا من توجيهه الوجهة التي تبغيانها، وبعد أن تزوجت الأم مرة أخرى سنة ١٨١٨ أخذ هانز يبحث عن الأجواء التي تساعده على تحقيق أحلامه.

وسمع في بيت السيدة (بنكفولد)- إحدى الجارات الجدد، وكانت مثقفة- كلمة «الشاعر» تتردد على الألسنة بشيء من الإطراء والتعظيم. وفي هذا البيت رأى هانز من الكتب أكثر مما كان يدور بخياله، فأخذ يستعير منها ما يشاء. وكان أكثر ما يجذبه إلى هناك هو العطف والتشجيع اللذين لم يعرفهما بالمدرسة أو في أي مكان آخر. زأخذ ينصب بأذن واعية إلى قراءات السيدة «بنكفولد» التي حوت الفنون الأدبية كافة وبخاصة الشعر والمسرح.

وأكثر هانز من التردد على بيت السيدة «بنكفولد» ووجد لديها الري الذي كانت تتوق إليه نفسه العطشي، وبدأ يدرك أنه لكي يكون عظيما «مشهورا» فلا بد من أن يصبح شاعرا. كما تفتحت أمام روحه نوافذ كثيرة على العالم الأثير لديه- عالم المسرح- وما إن أحس بأن الطريق قد بدا واضحا حتى قر قراره بسرعة فيما يتعلق بمستقبله وهو أنه لا يحقق أيا من آماله إذا ما بقى في أودنز، وأنه لن يصبح «مشهورا» إلا إذا سافر إلى كوبنهاجن.

وفي اليوم الأول من سبتمبر عام ١٨١٩ ودع هانز أمه وجدته ورحل

نحو المجهول، ولم يكن معه سوى بضعة شلنات وحصيلة من تجارب الطفولة.

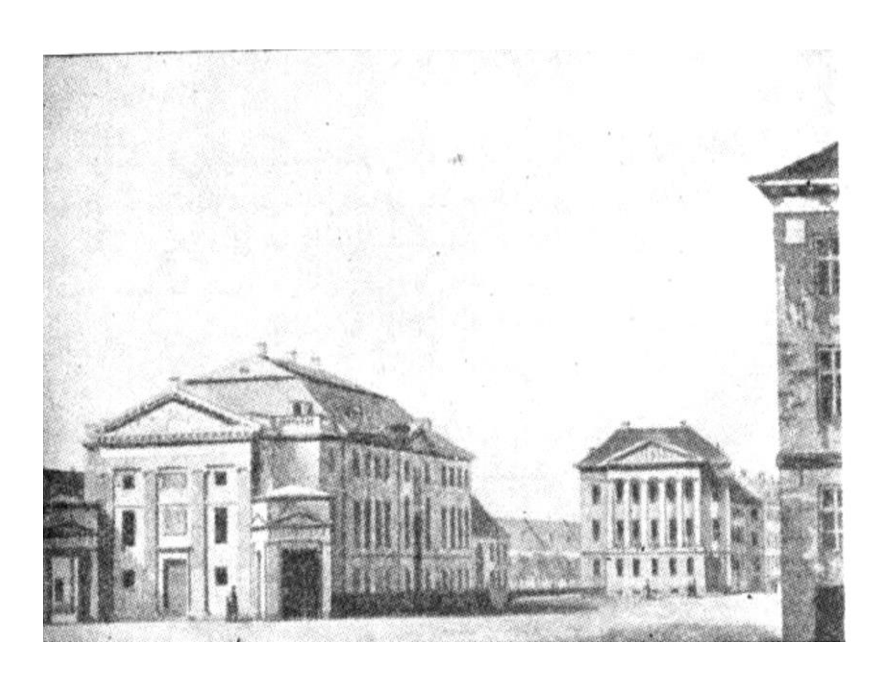
***

السنوات الأولى في كوبنهاجن:

ترك هانز كريستيان أندرسن مسقط رأسه إلى كوبنهاجن التي لم يكن يعرف فيها أحد سعيا وراء آماله وأحلامه، فلا غرو إذا وجدناه يناضل بكل قوة حتى لا يضطر إلى العودة إلى أودنز مرة أخرى، فالموت كان أهون عليه من ذلك.

وكان للدنمراك في تلك الفترة مسرح قومي له فرقته الخاصة من الممثلين وملحق به معهد للغناء والموسيقى المسرحية ومعهد لرقص البالية كلها تستكمل مواردها المالية من خزانة الدولة. وكان هذا سببا مباشرا في نهضة الآداب والفنون فيها. فلم يكن يمثل على خشبة هذا المسرح الملكي إلا أحسن ما تنتجه قرائح الكتاب والمؤلفين والشعراء، ولا يقوم بالتمثيل والغناء والرقص فيه إلا أفضل الممثلين والمطربين والراقصين والراقصات، ولا يرسم له المناظر إلا أنبغ الرسامين.

وهكذا كان هذا المسرح هو المركز الذي ينجذب إليه الفنانون والأدباء من جميع أنحاء الدولة، ولكنه في نظر هانز كان أسمى وأقدس من هذا.. كان كعبة يضرع إلى الله أن يحقق له الآمال في أن يصبح أحد حجاجها المخلصين.



المسرح الملكي بكوبنهاجن

وقبل أن يرحل أندرسن استطاع الحصول على خطاب توصية من (أفرسن) وهو صاحب مطبعة في أودنز إلى مدام (أسكال) راقصة البالية بالمسرح الملكي. وذهب هانز لزيارتها وأوضح لها رغبته في اعتلاء خشبة المسرح، ثم طلب منها السماح له بعرض شيء من فنه واندفع يخلع حذاءه ويرقص لها رقصة من (سندريلا)، وكان قد رأى مدام أسكال تقوم بهذا الدور عندما انتقلت فرقة التمثيل بالمسرح الملكي إلى مدينة أودنز، وخطر له أن قيامه بهذا الدور سوف يرضيها، ولكن المنظر كان كفيلا بأن يصيب السيدة بالذهول والرعب إذ أن أندرسن كان يتكلم بصوت مرتفع ويأتي بحركات مهولة وتعبيرات للوجه رهيبة، وكان يثب بالغرفة وثبات تهز أركانها. فظنت السيدة (أسكال) أن بالفتى مسا من جنون، وما كان منها إلا أن

أمرته بالتوقف ثم طردته من بيتها على الفور.

ولم يتطرق اليأس إلى هانز بعد هذه الصدمة برغم أنها هزته هزا عنيفا. وكان أفرسن المطبعي قد أخبره التوجه إلى مستر رايبك– أحد مديري المسرح– إذا لم يوفق لدى مدام أسكال، فنفض هانز الأحساس بالألم وبدأت الآمال تنتعش في صده حين قرر أن يعمل بهذه النصيحة على أن تلك الآمال انهارت جميعا من أساسها بعد خمس دقائق من مقابلته لمدير المسرح الذي طرده شر طردة أيضا.

ووجد هانز نفسه خاوي الوفاض بعد أن نفذ آخر شلن في جيبه، وكان عليه بعد الأسبوعين اللذين قضاهما في المدينة الكبيرة–دون جدوى– أن يختار بين أمرين: إما أن يعود أدراجه أو يعمل صبيا في إحدى الحرف. وكان قد انتوى بينه وبين نفسه ألا يعود حيا إلى أودنز ما لم يحقق الآمال التي غادرها من أجلها.

وفي ١٨ من سبتمبر قرأ في إحدى الصحف إعلانا يطلب فيه أحد النجارين فتى في مثل سنه، فسعى إليه ولكنه أدرك منذ اليوم الأول أن الجو المحيط به عة الجو العفن الذي كان يخنق أنفاسه في مصانع أودنز: القسوة نفسها وسوء الخلق نفسه فأسرع هاربا برغم الجوع والإفلاس اللذين ينتظرانه خارج الباب.

وترك هانز محل النجار، وذهب في اليوم نفسه يطرق الباب على (سيبوني) المغني الإيطالي في المسرح الملكي. وبرغم أن سيبوني كان يستقبل ضيوفا فقد أمر– لحسن حظ أندرسن– بإدخال الفتى. ووجد أندرسن

نفسه وسط باقة من قادة الحياة الثقافية في الدنمارك: (سيبوني) المغني الأل والموسيقار الكبير (وايز) ثم الشاعر الملهم (باجيسين).

ويبدو أن العناية الإلهية التي لم يكن أندرسن يشك فيها لحظة واحدة كانت على موعد مع الفتى المؤمن لتفتح له– ولأول مرة منذ قدومه إلى كوبنهاجن– بابا واسعا نحو المجد، لقد كانت تلك الزيارة التي قام بها أندرسن وهو يتأرجح بين اليأس والأمل من نقاط التحول الهامة في تاريخ حياته، فقد استطاع الفتى ذو الأربعة عشر عاما أن يلتقي بالعالم (بفتح اللام) الذي طالما كان يحلم به. ولم تنته تلك الزيارة إلا بعد أن وعده (سيبوني) بتدريبه على الغناء، ومنحه (وايز) بعض النقود التي كانت عونا له لفترة ليست قصيرة.

على أن الطريق لم يكن مفروشا بالورود من أوله، بل لقد واجهت هانز عدة صدمات متواليه. كانت أولى هذه الصدمات اعتذار سيبوني عن الاستمرار في تعليمه الغناء لأنه لم يجد لديه الموهبة التي يمكن أن تخلق منه مطربا، فضلا على أن برد كوبنهاجن القارس، الذي لم يستطع هانز أن يحصن نفسه ضده، قد أصاب أوتار صوته فضاع بذلك آخر أمل له في هذا المضمار.

ولم يترنح هانز تحت هول هذه الصدمة، بل اتجه بعناد وإصرار غريبين إلى التمثيل بعد أن جرب حظه في الغناء. واستطاع بعد مشقة أن يجد من يسند إليه بعض الأدوار الثانوية، ولكن (لندجرين) الذي كان يقوم بتدريبه على التمثيل قال له بعد عام ونصف العام: «لا شك أنك تنطوي على

إحساس مرهف، ولكنك لم تخلق لتصبح ممثلا، السماء وحدها هي التي تعلم ما خلقت له». وفي مايو سنة ١٨٢٢ فصلته إدارة المسرح.

وهكذا بدا الطريق إلى المسرح مغلقا في وجهه.. فانكفأ يسترجع هوايته القديمة التي لزمته منذ الطفولة، وهي الكتابة وقرض الشعر. وبحثه في حاجاته عن بطاقة أبيه الخاصة بصرف مكافأته عن مدة خدمته بالجيش، وكان هانز قد دون في تلك البطاقة قائمة بما سيؤلفه في المستقبل من القصص والروايات. ولما لم يكن قد ألف المسرحيات نفسها فقد كان يكتفي بقراءة أسمائها بصوت مرتفع لكل من يجد لديه استعدادا للإنصات.. وكان ينظم الشعر أيضا.

وفي الدأب والمثابرة نفسيهما استمر يسعى نحو «المجد و الشهرة » ووسيلته– في هذه المرة– الشعر والأدب، فكتب سنة ١٨٢٢ مسرحية (لصوص فيزنبرج) التي بنى فكرتها على بعض العقائد الشعبية التي لمسها في مسقط رأسه، وقدم هانز هذه المسرحية إلى مديري المسرح الملكي الذين أعادوها إليه مع الخطاب التالي:

إلى مؤلف المسرحية:

نعيد إليك مسرحية (لصوص فيزنبرج) لعدم صلاحيتها للمسرح، وإن الرقباء الرسميين يحبون أن يخطروا المؤلف– بسبب ظروفه الخاصة– أن كل صفحة في مسرحيته دليل على مبلغ جهله بالمباديء الأساسية للعلم والثقافة، فمن المستحيل تماما على أية عبقرية إنسانية أن تقدم مثل هذه المسرحية إلى جمهور مثقف على خشبة المسرح، وإنهم يشعرون بالسرور إذا

أدرك المؤلف الشاب أن الواجب يحتم عليه الإستعانة بأصدقائه لمواصلة الدرس والتحصيل، والتزود من نبع الثقافة التي يدونها لن يستطيع أبدا أن يحقق الهدف الذي يسمو إليه.

والواقع أن المشكلة الأساسية في حياة أندرسن كانت في تلك الفترة هي النقص الشديد الذي يعانيه في التعليم المنهجي المنظم. إن أندرسن حتى ذلك الحين لم يبق بأية مدرسة شهرا كاملا، وكل ما كان ينظمه من أشعار أو يكتبه من قصص ومسرحيات كان بأسلوب رديء وبطريقة فطرية زاخرة بالأغلاط. لم يكن حتى ذلك الوقت يستطيع أن يتهجى أو يكتب بضع كمات كتابة صحيحة، أو يقوم بأصغر عملية حسابية برغم أنه كان يلتهم أي كتاب يقع في يده ويحفظ عن ظهر قلب صفحات عدة منه ومناظر كاملة من المسرحيات.

ولم يستسلم أندرسن لخيبة الأمل التي أصابته بعد قراءة ذلك الخطاب، وسرعان ما تنبه إلى الأخلاص الكامن بين سطوره وإلى روح العطف والاهتمام التي تختفي وراء كلماته برغم القسوة التي قد تبدو فيها للوهلة الأولى.

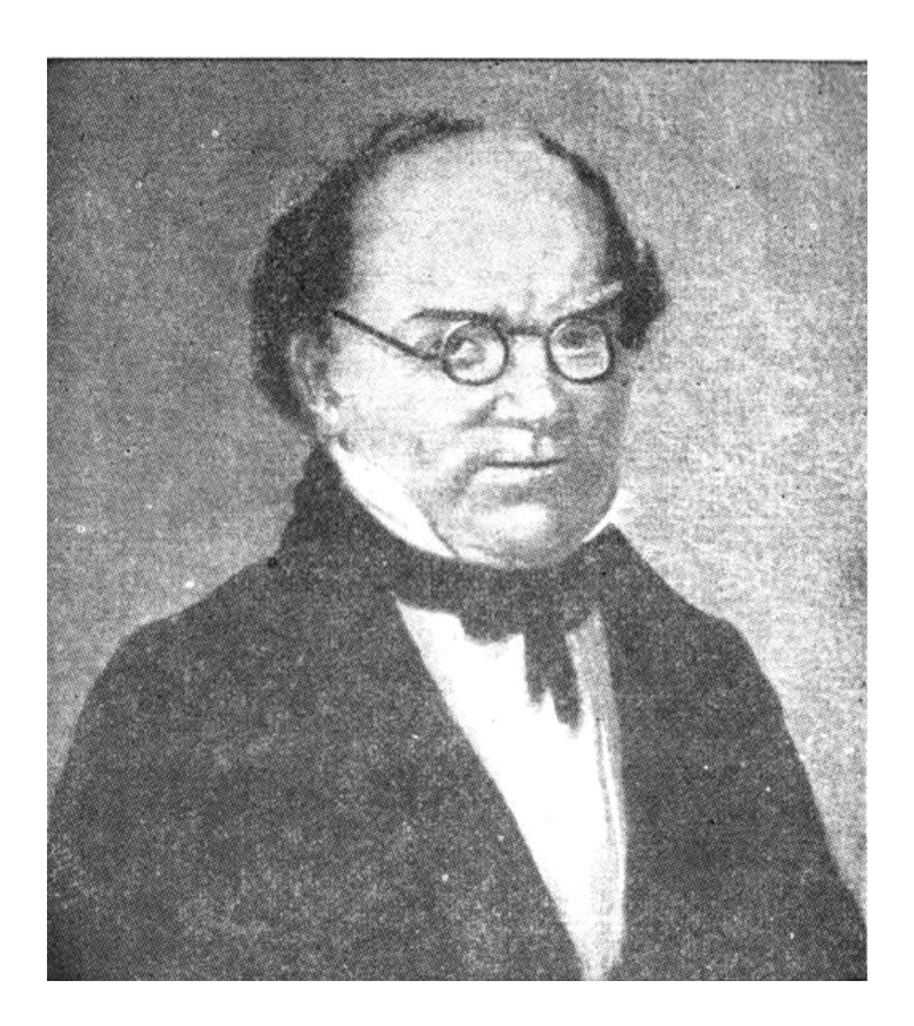
وجدت النصائح أخيرا صدى في نفسه، كما لمس مديرو المسرح الحيرة التي غرق فيها الصبي بعد أن حفيت قدماه وهو يطرق أبوابهم دون يأس أو ملل، فانعطفت قلوبهم إليه، وتحمس له أحد المديرين وهو (رايبك) أعظم النقاد في ذلك الوقت، فأوصى بإتاحة الفرصة بتعليمه وتثقيفه. وقام المستشار (جوناس كولين) وهو من مديري المسرح أيضاً بالتوسط لدى

ملك الدنمارك الذي وافق على تزويده بالثقافة اللازمة.وأخبره كولين أنه سيرسل إليه في كل أسبوع مبلغاً خاصاً ليشتري منه بعض الملابس والكتب ويحتفظ بالباقي لنفسه، وأنه سيتعلم بالمدرسة الثانوية بمدينة (سلاجلس) بالمجان. ذهب هانز كريستيان أندرسن إلى (سلاجلس) ليجلس– وهو في السابعة عشرة من عمره– بين تلاميذ الفرقة الأولى بالمدرسة الثانوية.

أيام الدراسة:

قبل أن يصبح هانز كريستيان أندرسن تلميذاً في مدرسة سلاجلس كان (سيمون ميسلنج) قد عين ناظراً لتلك المدرسة، وكان ميسلنج ذا شخصية متناقضة غريبة الأطوار. فإلى جانب كفايته كمدرس كانت تصرفاته تتسم بالقلق والتوتر والخشونة، كانت له– باختصار– عقلية العالم وطباع الحيوان الشرس. ولم يكن هانز كريستيان أندرسن يدري أنه مقبل في علاقته الجديدة مع الناظر ميسلنج على صفحة من أجل صفحات حياته.

ألحق أندرسن بالصف الثاني من المدرسة، وفي أول يوم من أيام الدراسة وجد نفسه في وضع عجيب، لقد كان أطول تلميذ من زملائه لا يصل برأسه إلى مرفقه.. حتى أنه كان يبدو بينهم بطوله الفارع مثل (خيال المآته) وسط عيدان القمح الهشة. وليت الأمر وقف عند هذا الحد، فإنه كان– وهو بهذه الهيئة– يضرب أخماساً في أسداس ويتلجلج لسانه عند أبسط الكلمات وأسهل المسائل الحسابية التي كانوا هم يحلونها بعقولهم الغضة في لمح البصر. لقد كان عقله خاليا تماما من أصغر البديهيات والمعلومات الأولية.



سيمون ميسلنج

ويصف هانز الأيام الأولى بالمدرسة قائلاً: «كانت رغبتي للعلم موفورة، ولكنني كنت في أول الأمر أتعثر وكأنني غريق في بحر، ترفعني موجه، وتهبط بي أخرى، قواعد اللغة.. الجغرافيا.. الحساب »

وكان الموقف عصيا، فإن عليه أن يعمل بأقصى ما يمكن لكي يلحق بهؤلاء

الصغار الذين شاء القدر أن يصبحوا زملاء له، وبرغم أن أن (ميسلنج) لم يكن يلجأ إلي العقاب الجسماني لم تكن تعوزه الحيلة التي ينكل بها بكل تلميذ لا يروقه. ولقد غدا أندرسن قبل مضي وقت طويل هدفاً لسخرية الناظر ونكاته اللاذعة التي كان يدمى لها قلبه الصبي المرهف.

ولم يستطع هانز أن يدرك سر تحامل الناظر عليه وكراهيته له. والواقع أن (مسيلنج) كان ييحسد الصبي- وهو التلميذ الصغير- على ما يلقاه من رعاية مديريي المسرح الملكي له وعلى أتصاله بأهم رجالات كوبنهاجن، مما كان لا يحلم به الناظر نفسه.

ومضت به الأيام عاصفة مفعمة بالكفاح، الكفاح من أجل رسالته الجديدة، والكفاح ضد السيطرة القاسية التي سادت حياته في (سلاجلس) وأخذ هانز يكتب إلى مستر كولين- الذي كان له بمثابة الأب الروحي- عن تقدمه في الدراسة، والواقع أنه كان يبذل جهداً فائقاً تدفعه عزيمة جبارة «حتى لا يظن أني أضيع أموال الحكومة عبثاً».

وكانت حياة أندرسن في تلك الفترة خليطا من السعادة والبؤس، فقد كان منتهى سعادته أن تنفرج له شفتا مستر ميسلنج عن ابتسامة صغيرة، أو تبدر منه كلمة عطف واحدة، على حين كان يسقط في وهدة الشقاء إذا ما انهال عليه ميسلنج بلسانه السليط.

وكتب أندرسن في مذكراته يقول: «لقد قال لي الناظر «مساء الخير».. آه لو كان يعلم إلى أي مدى تشجعني أقل امارات عطفه... كانت سترة الناظر مغبرة، فطلب من الخادم إحضار (الفرشاة) ولكنها لم تحضر،

فهرعت إلى تنظيفها بنفسي..

ومن جراء هذه الأيام المشحونة بالقلق والخوف والمهانة فإن ثقته بنفسه التي أطلقته كالصاروخ إلى قلب أرقى الأوساط الاجتماعية والثقافية في كوبنهاجن.. هذه الثقة تحطمت تحت الضربات القاسية التي تلقاها في (سلاجلس). وغدا يحمل بين جنبيه نفسا مهلهلة تعسة.

وحتى عام ١٨٢٥ كان هانز يعيش في بيت أرملة في سلاجلس ولكنه انتقل بعد ذلك ليعيش في بيت ميسلنج، لأن السيدة ميسلنج أدركت الفوائد المادية التي تكمن وراء سكنى هانز معهم. ولم يشأ هانز أن يرفض هذا الطلب من الناظر، وخاصة أنه كان يأمل أن يكون مثل هذا الإجراء بداية مرحلة جديدة من تبادل الثقة بينهما. ولكن لما كان بيت الناظر ليس كبيراً إلى الحد الذي يسع معه ضيفاً جديداً فإن انتقال هانز إليه لم يساعد إلا على زيادة تعقيد حياته.

على أن أيامه في سلاجلس لم تكن تخلو من بعض الهناءة، فبفضل مقدرة أندرسن الفائقة في ربط الوشائح والصداقات تعرف على الشاعر (أنجمان) الذي كان يقوم بالتدريس بجامعة (سورو) القريبة من سلاجلس، ووجد هانز في بيت (أنجمان) مرفأ الأمان الذي كان يلجأ إليه هرباً من حياته العاصة في البيت والمدرسة.

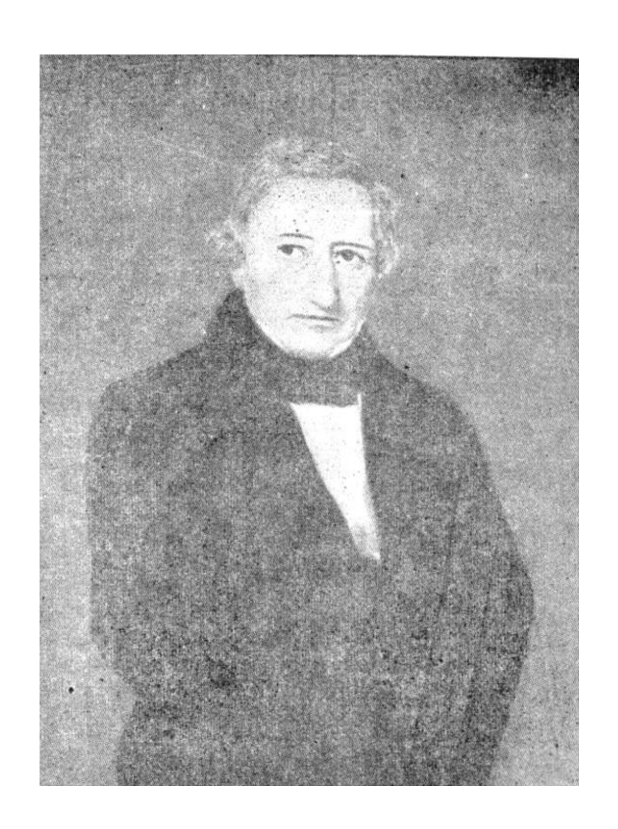
وبالإضافة إلى ذلك كان في مقدوره أن يقضي عطلاته خارج سلاجلس فقد ذهب إلى أودنز سنة ١٨٢٣ وأقام في ضيافة (أفرسن) المطبعي، وكان أثره على الجميع هناك كبيراً إذ بدا لهم شخصاً آخر غير ابن

الاسكافي الذي كان متهما بالجنون. وفي عطلة عيد الميلاد سنة ١٨٢٣ سافر إلى كوبنهاجن وقضى بها أسبوعاً ضيفاً على الكابتن وولف المترجم المشهور. وكان هو واقف في شرفة القصر مطلا على الميدان الكبير يحس كأنه في حلم لذيذ قصير سوف ينهض منه فزعا ليرى أمامه مستر (ميسلنج) البدين ذا الوجه الأحمر المكتنز والظل الثقيل. وكان يتردد كثيراً في تلك العطلة على منازل كولين ورايبك ويشهد الروايات التمثيلية على خشبة المسرح الملكي.

وفي ربيع سنة ١٨٢٦ نقل الناظر إلى (السينور)، وأخذ يغري هانز بالذهاب معه واعداً إياه بإعطائه دروساً في اللغتين اليونانية واللاتينية ليعاونه على اجتياز الامتحان، ولم يجد هانز بداً من الذهاب.

على أن بقاءه في السينور لم يكن سوى امتداد لمرحلة العذاب التي كان غارقا فيها في سلاجلس. فبالإضافة إلى شراسة الناظر وسوء معاملته لأندرسن فإن الجشع استبد بزوجة الناظر وأخذت تتذمر من ضآلة المبلغ الذي يدفعه لهما الصبي نظير إقامته، وأصبحت لا تضع له إلا قدراً يسيراً من الطعام لا يكفي إقامة أوده. كما أنها حرمته وسائل التدفئة التي تحمي جسده النحيل من البرد القارس. وكتب هانز الرسالة تلو الأخرى إلى مستر كولين يرجوه أن ينقذه مما هو فيه ولكن كولين اعتقد أن هانز يبالغ بعض الشيء فيما ذكره. ثم تصادف أن لمس أحد المدرسين عندما زار هانز مرة ما يلقاه الصبي من عنت واضطهاد، فلم يملك إلا أن يبعث برسالة عاجلة إلى مستر كولين يصف له فيها الجو الذي يعيش فيه هانز، فأرسل مستر كولين لهانز يأمره بالرحيل فوراً من السينور.

وفي أبريل سنة ١٨٢٧ ودع أندرسن (ميسلنج) وانتقل إلى كوبنهاجن حيث وضع تحت الرعاية الخاصة. وفي أكتوبر سنة ١٨٢٨ اجتاز الامتحان النهائي.



مستر كولين

وكان كولين يعرف ما جبل عليه أندرسن من ميل طبيعي للكتابة، فحاول أن يحضه على الالتفات إلى دراسته وترك الكتابة بعض الوقت. ولكن ذلك الطلب كان أمراً صعباً بطبيعة الحال، فالكتابة بالنسبة لأندرسن كانت تصرفاً غريزياً لا يجدي معه النصح ولا التحذير. ولقد كتب أندرسن

أيام المدرسة عدة قصائد لعل أهمها قصيدة (الطفل المحتضر) التي لاقت استحسانا كبيراً بعد أن نشرت بدون توقيع في صحيفة (ذي كوبنهاجن ميل) سنة ١٨٢٧ ولقد كانت هذه القصيدة صادرة من أعماق نفسه إذ كتبها في تلك الأيام الحافلة بالألم والبؤس والشقاء التي أمضاها تحت سقف بيت ميسلنج. ويقول الدارسون: أنها أول شيء كشف عن روح الشاعر الكامنة بين جنبي هانز كريستيان أندرسن، والقصيدة منشورة في مكان آخر من هذا الكتاب. (أنظر الفصل الرابع).

وما إن أفلت أندرسن من تحت سيطرة ميسلنج حتى بدأت شخصيته تتغير تغيراً ملحوظاً، وانطلقت نفسه من عقالها وألقى عنه رداء البؤس وفتح قلبه للحياة. وكان أول ثمرة أخرجها في تلك الفترة كتاب (رحلة على الأقدام من قناة هولمز إلى الجانب الشرقي من أماجار) وهو عبارة هم مجموعة من الأشعار المرحة وأخلاط من الأفكار والخواطر.

وفي سنة ١٨٢٨ كتب أولى مسرحياته (غرام نوق برج القديس نيقولا) وقد عرضت هذه المسرحية على خشبة المسرح الملكي في أبريل سنة ١٨٢٩. وأحس هانز بعد هذه الأعمال المتوالية أنه خلق ليكون شاعراً، وحالت طبيعته القلقة وعقليته الخيالية دون أحساسه بالمقدرة على الاستمرار في الدراسة.

وفي صيف ١٨٣٠ قرر أندرسن أن يشد عصا الترحال إلى ربوع الدنمارك بادئاً جولته بزيارة أودنز مسقط رأسه حيث أمضى أياماً ممتعة في ضيافة المطبعي العجوز أفرسن، ثم عرج على جزيرة جوتلاند حيث التقى

بالمؤرخ الشهير (سيمونز) ليستعين به على كتابة رواية عن قبائل الغجر وتاريخهم. وواصل أندرسن رحلته بعد ذلك إلى مدينة (فابورج) وهي بلدة صغيرة على شاطيء البحر بالجزء الجنوب الجميل من جزيرة (فونين). وفي هذه المدينة– حيث كانت تقطن أسرة زميل له– عاش أندرسن تجربة لم تبرح ذاكرته مدى الحياة، فقد كان لزميله هذا، وهو ابن أحد التجار بالمدينة، شقيقة بارعة الجمال لطيفة المعشر تدعى (ريبورج) وما كاد أندرسن يراها ويتحدث إيلها حتى غرق في حبها لأذنيه.



ريبورج

وفي متحف هانز كريستيان أندرسن مجموعة من الذكريات التي تسجل هذه الحادثة ، فهناك باقة من الزهر مدون عليها بخط ريبورج أن أندرسن قدمها لها في أغسطس سنة ١٨٣٠ كما أن هناك أيضاً مجموعة كبيرة من القصائد الغنائية التي بعث بها أندرسن لريبورج والتي كانت ارهاصا جديداً لشاعر مرهف الحس بعد قصيدته الرائعة «الطفل المحتضر» وما زال النقاد يعتبرون قصائد: «عينان عسليتان» و «أحبك» وغيرهما من قمم الشعر الدنماركي حتى الآن.

وكانت ريبورج مخطوبة لابن صيدلي بالمدينة، ولكن يبدو أن الفتاة قد أعجبت بأندرسن وبهرها حديثه عن نفسه وآماله وما ينتظره من مجد وشهرة.. ولعل أكبر دليل على تعلقها به هو العناية والحرص الشديدان اللذان أولتهما كل ما يذكرها بالشاعر الشاب.

وسرعان ما قرر أندرسن العودة.. وأخذ يعمل على تناسي الصدمة التي مني بها قلبه، فكتب مسجلاً الحادثة في مذكراته: «لقد كان غباء منى وأنا الرجل الفقير أن أقع في الحب. لا مراء في أن لديها ثروة تكفينا معا, ولكن ماذا كان الناس سيقولون عني؟»،

ولقد التقى بريبورج عدة مرات بعد ذلك وكتب بعد إحدى هذه المرات: «أن الذكريات، كحبات العنبر الأصيل كلما حككتها أرسلت من عطرها القديم شذا». وكانت آخر مرة لقيها فيها في سنة ١٨٤٣ عندما كان نجمه في صعود. وعقب ذلك اللقاء عاد إلى البيت وكتب قصة «الكرو والحذروف» التي كانت «وداعاً ساخراً لغرام صباه». (أنظر الفصل

الثالث).

وفي سنة ١٨٣١ قام أول رحلة له إلى الخارج، فسافر إلى ألمانيا حيث وجد عالما أرحب وأكبر، وتحول في أبهاء الكاتدرائيات الفخمة المشيدة على الطراز القوطي. وهناك في هذا الجو الجديد استعاد البساطة وثقته اللذين ساعداه على ربط الوشائح واكتساب صداقات جديدة مثلنا كان في كوبنهاجن. فسرعان ما عدا صديقا لادلبرت فون شاميسو الكاتب الألماني وقد كانت نتيجة هذه الرحلة كتاباً أسماه «أطياف وصور» سنة ١٨٣١.

على أن الفترة ما بين سنتي ١٨٣١و ١٨٣٣ كانت من الفترات الحرجة بالنسبة لأندرسن، فإن المرح الدافيء الذي كانت تتسم به شخصيته في السنوات الماضية كان قد زايله. وأخذت تظهر في خطاباته إمارات الوحدة والكآبة ، ففي خطاب له إلى صديقه أدوارد نجل (كولين) سنة ١٨٣٢– وكان في أودنز حينئذ– كتب يقول:

«الناس حولي يبذلون كل ما في وسعهم لإرضائي، فأكبر العائلات تمنحني كل اهتمام ورعاية، ولكن لا فائدة. ولست انسانا شاذاً يهوى أن يكون ساخطا، فأنني أتمنى أن أكون سعيداً، ولكنني لا أستطيع مطلقا أن أستعيد السعادة والمرح اللذين عرفتهما في صباي» وبعد ذلك بستة شهور كتب يقول: «لقد طرأ على حياتي كثير من الأحداث في غصون العام الماضي فأما أن أتغير إلى الأفضل، وإلا فقد ضاع كل شيء. أن حياتي كشاعر لم تكن سوى نجم منطلق سوف يطويه النسيان في أسرع وقت».

ويقول مرة «لقد كنت أقف وحدي منذ أن كنت طفلاً حتى الآن». ويقول مرة أخرى في خطاب له إلى مستر (كولين): «مهما كان عطف الناس علي فسأظل «مقطوعا».

وكان يكمن وراء كل هذه الخواطر احساسه بعدم الاستقلال، وخوفه من أن يشعر الذين مدوا له يد المساعدة بخيبة الأمل في كل ما فعلوه من أجله، الخوف نفسه الذي لازمه كالعضة في الحلق طوال أيام دراسته. وفي أثناء تلك الفترة أخذت تحتل أفكاره (لويز) ابنة مستر (كولين)، فكان يبعث لها ببعض الرسائل والقصائد الغزلية، ولكن شقيقتها (أنجبرج) طلبت منه أن يكف عن إرسال مثل هذه الأشياء لأن هذا لا يتفق مع ما أخذت به العائلة نفسها من تقاليد. ولقد كان هانز يريد أن يمر بتجربة تلهب فكره وخياله وتوحي له ببعض الانطباعات التي لا يستطيع الفنان أن يعيش بدونها.

وتمكن أندرسن من الحصول على منحة يستطيع بها القيام بعدة رحلات إلى الخارج، فأعد خطة لزيارة فرنسا وإيطاليا.

واستطاع وهو يضرب بين ربوع البلاد أن ينظر إلى حياته الصاخبة التي جرت أحداثها على أرض وطنه، وأن يجتر أفكاره وأحساساته وكأنما كان ينظر إلى نفسه من بعيد، وخرج من كل ذلك بأعجب ترجمة ذاتية. وطبع الكتاب لأول مرة بعنوان «كتاب حياتي» وقد كان يقصد من الكتاب أن يكون وصيته الأخيرة، فثمة فكرة أخذت تحتل ذهنه منذ غاب عن ناظريه شاطيء الدنمارك والسفينة تمخر به عباب المحيط، وهذه الفكرة هي أنه

سوف يموت خارج البلاد. وحتى يتسنى له الفرصة الحقيقية لفهم حياته وأعماله كتب أندرسن ذلك الكتاب. وأعتقد الناشر أن الكتاب مقصود به (لويز كولين) والواقع أن أندرسن كان يعني به أن يكون ذخراً للأجيال المقبلة. لقد كان الكتاب اعترافاً. «إذا ما مت وأنا خارج البلاد فذكر أدوارد أن ينشر ذكرياتي.. أن ما بيدك هي أفكاري «الأخيرة».

رحلاته وقصصه الأولى:

بدا أندرسن رحلته الأولى في أبريل سنة **١٨٣٣** بزيارة باريس ومنها سافر إلى سويسرا، وعن طريق ميلانو وجنوا ثم فلورنسا وصل روما في أكتوبر من العام نفسه. وبقى في إيطاليا ستة أشهر كان ينتقل فيها بين بلداتها المختلفة.

وفي أبريل سنة **١٨٣٤** قفل عائداً إلى أرض الوطن فوصل كوبنهاجن في أغسطس بعد أن مر بفينا وبراغ ودرسدن وبرلين ثم هامبورج.

وكان الأصدقاء في الدنمارك على علم بكل أخباره من الخطابات التي كان لا يكف عن إرسالها لهم، وكانت الخطابات تختلف بأختلاف الاهتمامات التي تشغل أذهان المرسل إليهم. فهو يقول «لجو تليب كولين»- وهو الأخ الأكبر لصديقه أدوارد- في إحدى خطاباته، عن متحف اللوفر: «أنه في الواقع أروع مما يخطر بذهن بشر! أنك تجد كل المعروضات في قاعة واحدة، ولكن أي قاعة هذه أنها تدير الرءوس! ويكفي أن أخبرك بأن طولها لا يقل عن الطريق الرئيسي نحو روتشيلد!» أما إلى خطيبة «جو تليب» فهو يهمس قائلا: «النساء هنا لسن جميلات إلا

على ضوء الشموع، أنهن خلقن لصالة الرقص».

وكان المسرح هو المغناطيس الذي يجذبه في أي مكان يضع فيه قدمه، فأخذ يجوب كل المسارح التي يصادفها، وفي فرنسا تعرف على كتاب المسرح الفرنسيين وبهرته الحياة الزاهية التي تغرق شوارع باريس.. «بجوار كل حانوت حانوت، ومرآة بعد كل مرآة، حتى ليخيل إليك أنه لو تحطمت واحدة انهارت جميع المرايا في اللحظة نفسها».

وبدت له سويسرا أروع وأجمل من باريس. فلم يكن بالدنمارك جبال شامخة، وقد بدت لهانز جبال الألب حين تفتحت عنها غلائل الضباب، كأنها أشكال ضخمة تسبح عالية في الهواء. وقد ظن. والمركبة تصعد به إلى أعلى، أن غلالة كثيفة من الدخان تقبل عليه وتحيط به، ولكنه لم يلبث أن تبين أن هذه الغلالة ليست إلا قطعا من السحاب، وقد كانت المركبة تنطلق به فوق مستوى السحب، وأخيراً «رأينا بين فرجات الجبال في المنحدر البعيد، منطقة خضراء رائعة.. أرضا كالتي تراها في الأحلام، أنها حنيف.. وأن بحيراتها الجميلة لتبدو في صفاء السماء وكأنما ماؤها الأزرق ملون بفرشاة، وارتفعت الجبال نحو الأفق كأنها أمواج من البلور القرمزي المتوج بالزبد الأبيض».

وغمره جمال الريف الإيطالي وتسلل كالأصابع الرقيقة إلى قلبه تربت عليه في حنان، وإلى خياله تشحده وتقويه، وقد كتب لأحد أصدقائه في أودنز يصف له ريف إيطاليا بقوله! «ليس في مقدروك أن تتصور نماذج الألوان، والأشكال المتغيرة دواما على مسرح جنوبي إيطاليا، فعند المساء

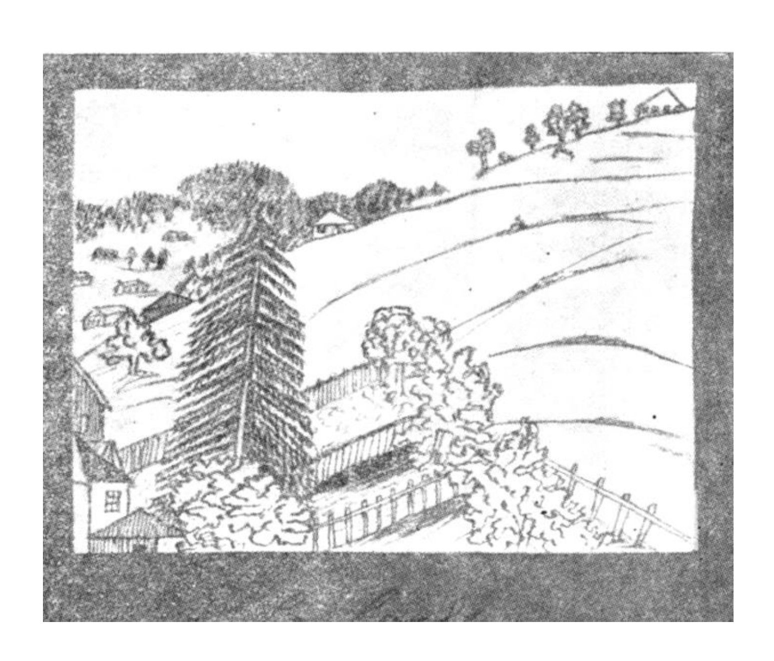
يصطبغ البحر بلون وردي، وتبدو الجزر وسطه مثل سحب قرمزية طافية، أما الجبال فتسكتسي بلون بنفسجي رقيق، وإلى جانب كل ذلك ينهر الحمم من فوق قمة (فيزوفيوس) كأنهار من دماء تضوي في نور القمر».

وفي روما التقى بالمثال الدنماركي «تورفالدسن»وعقد معه صداقة وثيقة ودخل عن طريقه عالماً جديداً كان يستويه منذ صغره إلا وهو عالم التصوير، فمنذ كان يحلم بالمناظر المصورة التي أوحت بها إليه الصور الملونة البدائية على باب غرفة والديه في أودنز لم ير لوحات فنية وتماثيل رائعة من أعمال الفنيين العالميين. والآن انتشت روحه وهو يرى إنتاج ميخائيل انجلو وبوتيشللي ودافيد. «لقد ذابت الثلوج من أمام عيني وانفتحت أبواب عالم جديد من الفن».

وتحركت يده بسرعة وجسدت الاحساس ذي الانطباع السريع وأخذ يصور بريشته كل نبضة حية من نبضات الطبيعة. وقد جمعت رسومه التي يعود أغلبها إلى الفترة التي كان فيها في روما، وهي الآن محفوظة بمتحفه في أودنز. وقد كتب إلى صديقه أدوارد يقول: «لقد رأيت اليوم حمامات شيشرون فرسمتها على الفور. إنني أصبحت الآن أجيد الرسم إلى حد كبير ويغبطني كل فناني روما على دقة ملاحظتي، ولقد رسمت حتى الآن مائة منظر هي بالنسبة لي ذخيرة رائعة. آه لو كنت قد تعلمت الرسم من أول الأمر!

على أن رحلته إلى إيطاليا لم تكن لهوا لا طائل وراءه. فكتابه الذي يضم قصائده ظهر في سنة ١٨٣٣ في أثناء وجوده بالخارج. وبعد ظهور

هذا الكتاب أخذ أندرسن يتابع في لهفة وقلق آراء النقاد والأدباء فيه. وقد كتب أحد النقاد يقول: «أن من الظواهر النادرة في أدبنا أن تصدر مجموعة من الأشعار تملا ٣٥٩ صحيفة لا تجد ٢٠ منها تستحق التأمل!».



من النافذة – في لولوكل– رسم اندرسن هذا المنظر الطبيعي

وفي أثناء وجود أندرسن في «لولوكل» كان يعمل في جد ونشاط لكتابة دراما شعرية أسمها (آجنت والجني) وكان يريد أن يعبر بها عن الاشتياق الغريب إلى شيء ما يختلف عما في أيدينا، وأخذ يعرب في خطاباته التي كان يبعث بها إلى الدنمارك عن آماله التي عقدها على هذا العمل. وكم كانت الصدمة مدمرة حينما أرسل إليه إدوارد في ديسمبر سنة

١٨٣٣ يقول له. إن المقطوعة لم تعجب أحداً وأن جميع الناشرين يرفضونها. ولكن ادوارد أستطاع أن ينشرها بعد أن أخذ يجمع لها الاشتراكات من الجميع، الذين كانوا يدفعون وهم يقولون: «هل عاد إلى الكتابة مرة أخرى؟ لقد سئمناه منذ زمن بعيد!». وكتب مستر كولين لهانز يقول له: «أنك بمثل هذا الإنتاج تخاطر بسمعة أعمالك كلها لدرجة أنك لن تجد مكتبة واحدة تتقبل كتبك ولو على سبيل الهدية!».

ولم يطب له المقام في إيطاليا بسبب العاصفة التي استقبل بها النقاد والكتاب كلا من كتابيه الأخيرين. ثم جاءته الأنباء تفيد أن أمه قد ماتت في المستشفى، فازداد أحساسه بالوحدة والبؤس واليأس.

وعلى ضوء هذه الأحاسيس يمكن الحكم على الأيام التي قضاها أندرسن في إيطاليا، فقد كانت السنوات بين ١٨٣٠ و ١٨٣٣ سنوات حرجة بالنسبة له.. أنه لم يلق حتى الآن سوى النقد القاسي والعداء الشديد والنصائح التي كان بها ذرعا. لقد كان يشعر من فرط الأسى أنه يوشك أن يلقي كتبه في مياه نهر التيبر ثم يلقي نفسه وراءه.

ووسط هذه الدوامة القاسية وعلى مشارف المستقبل المجهول التقت انطباعات الشاعر بملامح الفن العريق الخالد في إيطاليا لتتولد منهما شرارة تأخذ البصر، والتقط أندرسن هذه الشرارة وأشعل بها ما تبقى لديه من عزيمة وأمل وإيمان، ولم يغادر إيطاليا إلا وهو يحمل بداية عمل كبير انتهى منه بعد عودته إلى الوطن.

كان هذا العمل هو روايته «الشاعر المطبوع» وهي ترجمة مقنعة

لحياته، فالشخصية الرئيسية– والتي قدمها المؤلف في ثوب إيطالي– لم تكن سوى نسخة أخرى من المؤلف نفسه، وكذلك فإن الشخصيات الثانوية فيها ملامح نعرفها كثيراً.. فهناك الأم المسكينة والجد المجنون والناظر ميسلنج والمدرسون في كوبنهاجن.. أن أندرسن يقول عن هذه الرواية «كل الشخصيات منتزعة من الحياة كلها، ولا توجد شخصية واحدة من وحي الخيال، أنني عرفتهم وأعرفهم جميعا..».

وليس من شك في أن هذه الرواية كانت نقطة تحول في حياته، فبدونها ما كان ليستطيع أن يخرج عن كونه ذلك الغلام الجاهل المتعثر ليصبح الكاتب العالمي هانز كريستيان أندرسن، فقد صدرت الرواية ولقيت إجماعا تاما على جمالها، وأعيد طبعها عدة مرات وترجمت إلى السويدية ثم الألمانية والإنجليزية. وتوالت بعد ذلك أعماله الناجحة وما إن حلت سنة ١٨٤٠ حتى تأكدت شهرته واسترعت أنظار أوروبا بأكملها وأصبح محل تقدير جميع الأوساط الأدبية بها واهتمامها.

وبدا أندرسن في هذه الفترة يحس بنظرة الطمأنينة والاستقرار في أول مرة في حياته.. فلم يعد يطارده شبح القلق والجوع والتشريد.. أنه يسجل هنا أحاسيسه في صراحة وصدق جديرين بالإعجاب! ففي خطاب له إلى «هنريتهانك» حفيدة المطبعي (أفرسن) كتب يقول: «لم يمر في حياتي شتاء هادىء سعيد كهذا الشتاء.. فإن روايتي (الشاعر المطبوع) قد رفعتني في أعين الخبراء والعظماء.. وحتى عامة الشعب أصبحوا يحترمونني ولم أعد أشعر بالقلق على طعام يومي.. حمدا لله فقد استطعت أخيراً أن أستمتع بالحياة تماما.. فالناشرون يرسلون لي الصحف والمطبوعات. وأني لأجلس

مرتديا ثوبي المنزلي الزاهي (وشبشبس) الملون على الأريكة المريحة، وبجانبي الموقد يئز، وأبريق الشاي يطن، ورائحة البخور تشيع في جو الغرفة الأحساس بالرضا، وعندئذ أفكر في ذلك الصبي الصغير الذي كان ينتعل الحذاء الخشبي في أودنز، فتمتليء نفسي بالرضا والشكر لله الرحيم».

ولم يكن أندرسن مع ذلك قد ضمن الإيراد الثابت الكافي لتشجيعه على الزواج مع الاحتفاظ بمستوى اجتماعي لائق. وكان كلما فكر في الاقدام على الزواج قال لنفسه في مرارة.. "كنت من قبل مشغول الفكر بالمجد، أما الآن فقد أصبحت مشغولا بشجرة الخبز".. وجاءته شجرة الخبز على صورة معاش سنوي قررته له الحكومة، وبدأ يحس بالاستقرار الكامل أدبيا وماديا لأنه لم يعد يكتب اضطرارا لكسب القوت.. «وأصبح لي في حديقتي شجرة خبز.. ولم أعد بحاجة إلى الفتات».

***

عودة إلى المسرح:

الفنان هو الفنان دائما.. نوع من البشر لا يكاد يلوح له الاستقرار حتى يعاود البحث عن القلق، ولا يكاد يحيق به القلق حتى تسود الدنيا في عينيه وينحي بانلائمة على الأيام.

فقد ظل أندرسن كما هو، أندرسن الشاعر الذي لا ينفذ إلى أعماقه كل ما حوله من مظاهر أو بريق، لم تعد «شجرة الخبز» الصغيرة هي كل هدفه المنشود، وأخذ يشعر بالقلق والاكتئاب مرة أخرى.

ولقد عاوده هذا القلق في صورة الحنين إلى المسرح الذي غادر من

أجله مسقط رأسه وهو بعد طفل صغير. ولم يكن قد زايلة ذلك الحنين إلى المسرح طوال تلك السنوات برغم الفشل الذي مني به في التمثيل والفناء. وكان أندرسن قد كتب أوبرا أسماها «عروس لامرمور»، وعرضت هذه الأوبرا على المسرح الملكي سنة ١٨٣٢ فصادفت بعض النجاح، ثم كتب بعد ذلك عدداً من الأعمال المسرحية الضعيفة التي لم تكسبه شيئا جديدا.



هانز كريستان اندرسن في شبابه

ولكن بعد أن أصبح مرموقا ككاتب قصة اتجه إلى القيام بعمل مسرحي كبير، فكتب مسرحية شعرية أسماها «الخلاسي» وقدمها إلى

المسرح الملكي عام ١٨٣٩. وكان موضوع المسرحية يدور حول رجل ملون استطاع بعد كفاح عنيف ومغامرات قاسية أن يتزوج الكونتيسة البيضاء التي يحبها. وبرغم أن «مولبك» الرقيب بالمسرح قرر أن المسرحية تافهة وتنقصها الفكرة فإن مكانة أندرسن الأدبية في ذلك الوقت استطاعت أن تدفع بالرواية على خشبة المسرح، ولكن يشاء الحظ العاثر أن يموت الملك في ليلة الافتتاح مما أدى إلى تأجيل العرض، غير أن هذا النحس لم يدم طويلا، فقد عرضت المسرحية بعد انتهاء فترة الحداد وإذا بها تلقى استحسانا كبيرا، مما دفع أندرسن إلى كتابة مسرحية جديدة اسمها «عذراء المغرب».

ولكن (مولبك) لم يكن قد غفر لأندرسن موقف التحدي السافر الذي اتخذه ضده في مسرحية " الخلاسي" فتضامن مع «هايبرج» وهو أكبر ناقد أدبي في ذلك الوقت للوقوف حجر عثرة أمام المسرح الملكي، حيث رفضت مسرحية «عذراء المغرب». فحنق أندرسن عليهم جميعا، ودفع بالمسرحية إلى المطبعة بعد أن كتب لها مقدمة لاذعة ألهب فيها ظهور النقاد وذكرهم بالتوفيق المنقطع النظير الذي لقيته أعماله في السويد وألمانيا! «مازال الناس يضعون نصب أعينهم المحاولات الأولى التي قمت بها في الكتابة للمسرح إلى الحد الذي يئسوا معه أن أكتب شيئا جديرا بالثناء في هذا المضمار، ومع ذلك فلقد اعتقدت أنه في مقدوري أن أبذل محاولة جديدة، وليس ثمة من يجهل هنا المشاق التي واجهتها لكي تظهر هذه المحاولة على خشبة المسرح. وإني لأعتبر قبولها من قبيل الرحمة برغم أنها لقيت من الترحيب والأستحسان ما لم يدر لي بخلد، بل لعلي أستطيع أن

أقول أنها انعشت الموقف المالي للمسرح».

أما عن هذه المسرحية « عذراء المغرب» فإني لن أعرف المصير الذي ستلقاه هنا إذ أني سأكون قد غادرت الديار قبل أن تتخذ طريقها إلى خشبة المسرح. إنني سوف أرحل في هذا الوقت بالذات لكي أنسى بعض الأشياء المريرة، ثم لكي أستعيد قواي من جديد حتى أستطيع القيام بعمل أفضل.

وشد أندرسن الرحال نحو الشرق قبل أن يشهد المسرحية على خشبة المسرح الملكي في ديسمبر سنة ١٨٤٠، ولقد قوبلت المسرحية ببرود ولم تعرض إلا لمدة ثلاث ليال.

على أن هذا الدرس لم يكن كافيا لأبعاد أندرسن عن الكتابة للمسرح، فقد قدم في عامي ١٨٤١، ١٨٤٢ بعض المسرحيات لعل أفضلها تلك الهزلية التي أسماها «غرفة النوم الجديدة» وكان قد قدمها باسم مستعار لأول مرة سنة ١٨٤٥ قائلا: «إنهم سيقبلونها إذا عرفوا أنني لست كاتبها» وكأنما شاء القدر أن يثبت صحة رأيه فإذا هي تقبل فوراً، وتنجح نجاحاً يجعلها تبقى في برنامج المسرح لتمثل بين حين وآخر لفترة تقرب من مائة عام.

وفي سنة ١٨٤٦ عرضت له أوبرا «كريستيين الصغيرة» التي وضع موسيقاها هارتمان وأصبحت على كل لسان. وتحقق أندرسن في نهاية الأمر أن كتابة التراجيديات لا تتلاءم معه فأخذ يكتب منذ سنة ١٨٥٠ عددا من الهزليات بصفة منتظمة لبعض المسارح الشعبية.

القصص الأسطورية:

هناك عاملان أساسيان لاتجاه أندرسن إلى كتابة القصص الأسطورية للناشئة.

العامل الأول نفسي، وهو يتعلق بما ناله من عقوق ونكران من الجيل الذي عاش فيه. إنه كان ينشد الشهرة والمجد، وها هي ذي السنون تنهب من عمره ولا يكاد يظفر بما كان ينشده، فالنقاد يضعون أمامه العراقيل تلو العراقيل ويملأون طريقه بالشوك ويسلطون عليه أقلامهم الحادة التي تنهش روحه وقلبه. كان جيله في نظره مفعما بالنفاق، فمن يصفق له اليوم استحسان يقلب له في غد ظهر المجن وينضم إلى جيش الحاقدين. وهو أيضا جيل قاصر محدود التفكير لم يقدر على فهمه تقديره حق قدره، ومن ثم كان لابد له من الاتجاه إلى جيل آخر– جيل طيب لا يعرف الحقد، جيل يمد في عمر شهرته سنوات طويلة لا تعوض ما ضاع من عمره فحسب بل تمتد بعد وفاته أحياناً أخرى.. وهذا هو ما يفسر تلك العبارة التي وردت في خطاب له إلى (هنرييتهانك): «لقد شرعت في كتابة بعض القصص الخيالية للأطفال، إنني أريد أن أكسب الجيل القادم».

أما العامل الآخر فهو عامل مادي، إذ بعد أن فرغ أندرسن من روايته «الشاعر المطبوع» التي كان يعلق عليها أكبر الآمال، بعث بها إلى إدوارد كولين الذي حملها إلى الناشرين وساومهم عليها نيابة عن صديقه، فأبى جميعهم أن يدفعوا أكثر من عشرين جنيها، وعلى أقساط ولم يسع هانز إلا أن يقبل مرغما فقد كان عليه إيجار شهر للمسكن، وبرغم أنه كان يتناول

وجبة عشاء كل يوم عند أصدقائه بالتناوب فإن ملابسه وحذاءه كانت في حالة يرثى لها.

وبسبب فقره الشديد، وحاجته الملحة إلى المال، أضطر إلى تأليف كتيب يحتوي على بعض القصص الأسطورية للأطفال، منها (القداحة)، (كلاوز الصغيرة والكبيرة).

على أنه بالرغم من أهمية هذين العاملين فإن التحول الخطير في حياة أندرسن الأدبية لم يكن محض مصادفة، بل كانت له جذور متأصلة في كيانه منذ أن كان طفلاً صغيراً.

فقد كشف هانز منذ الصغر عن ميل إلى كل ما يمت بالخوارق الطبيعية والأساطير بصلة، كما أنه كان دائم الهروب من واقعه والتحليق في الأجواء البعيدة حتى لقد كانت أمه تقول: أن ابنها أغرب الأطفال وأعجبهم.

ومن ناحية أخرى كان أندرسن ذا أحساس غير عادي وفهم عميق لنفسية الأطفال، كما أنه كان قادراً على التعبير عن نفسه بما يرضي أمزجتهم على مختلف أعمارهم. وها هو ذا «أدوارد كولين» يعطينا صورة حية عن سلوك أندرسن الفريزي نحو الأطفال، كان كلما وجد في أحد المحافل التي ترتادها مجموعة من الأطفال أقتحم عالمهم وجذبهم إليه في ثوان معدودة بما يقص عليهم من قصص كان أغلبها وحي الساعة وبعضها مقتبس من الأساطير التي نعرفها، ولكنه سواء كان يؤلف تلك الأقاصيص أو يرويها من بعض ما قرأ، فإن طريقة عرضه لها كانت طريقة خاصة به، ومثيرة لدرجة تجعل كل طفل مشغولا عن نفسه وتشد أذنه وكأنه إلى شفتي

أندرسن.

ولقد كان أندرسن نفسه يحس بالمتعة عندما يجد الذهول البادي على وجوه الأطفال، فينفلت لسانه من عقاله وينطلق في الحديث دون توقف على حين تعمل يداه وملامح وجهه في حركات مستمرة مما يكسب كلامه كل سحر وتأثير. لقد كان يبث الحياة في العبارات المجردة ويضفي عليها من خياله المتوقد ما يحيلها إلى مشهد نابض بالحركة: فهو مثلا لا يقول هذه العبارة: «صعد الأطفال إلى المركبة وانطلقت بهم «بل إنه يترجمها» طريقته الخاصة إلى ما يلي: واتواثبوا جميعاً إلى المركبة.. وداعاً بابا.. وداعاً ماما.. وفرقع السوط في الهواء.. وطارت المركبة في طريقها».

لقد كانت طريقته مفعمة بالحياة لأنه استعمل عبارات سهلة تنساب في غير ما تعقيد أو حذلقة. ومن أجل هذا قيل– والقول حق– أن أدرسن ليس هو الذي أخذ من اللغة الأدبية في عصره، بل إن الشعب الدنماركي هو الذي تأثر «باللغة الأندرسنية».

وكان من ملامح ذلك العصر الاهتمام الزائد بالأساطير الشعبية، فلم يكن أي بيت في الدنمارك يخلو من كتب الأساطير لأخوان (جريم) والكاتب الألماني «هوفمان». وكان لهذه الأساطير فعل السحر على هانز كريستيان أندرسن، على أنه لم يكن يكتفي برواية الأساطير الشعبية، بل كان يهضمها ثم يخلق منها شيئاً جديداً نابعاً من عالمه الخاص. وفي هذا يقول (إدوارد ليهمان) المؤرخ المشهور: «إن كل الأساطير التي عالجها رومانتيكيو ألمانيا ليست سوى صور أدبية، أما أندرسن فقد أخرج لنا

الأساطير- سواء تلك التي رواها أو وضعها- من زاوية أصيلة وتجربة ذاتية حقيقية. أنه آخر كتاب الأساطير في العالم، ولأنه آخرهم فهو أولهم وأعظمهم ».

وبمجرد أن اكتشف أندرسن هذا الاتجاه الطبيعي في نفسه ورأى ملاءمته لمواهبه شرع في نشر الأساطير التي ألفها بنفسه. وكان يجد الإلهام أينما حل «كان يخيل إلي أن كل ورقة وكل زهرة تقع عليها عيناي تهيب بي قائلة: أنظر إلي لحظة واحدة ولسوف تعرف قصتي وكنت كلنا أفعل أجد لدي قصة جديدة».

ولقد كانت طفولته نبعا لا ينضب، وكذا تجاربه وأسفاره، وهو يتحدث عن الأفكار التي كان يغوص وراءها في أغوار عمره فيقول: (إنها تكمن هناك كالبذور، وكان يكفي انطلاقها براعم زاهية، نفحة من هواء أو شعاع من شمس أو قطرة ندى).

وتختلف أساطير هانز كريستيان أندرسن عن الأساطير الشعبية التي كانت معروفة قبله بما تحويه من وفرة في وصف الطبيعة، فقد كان أندرسن ذا إحساس فريد بجمال الطبيعة، وكانت الزهور هي أقرب مظاهر الطبيعة إلى قلبه. وما زالت في متحف أندرسن مجموعة من الزهور كان قد جمعها في أسفاره المختلفة واحتفظ بها إلى آخر أيامه.

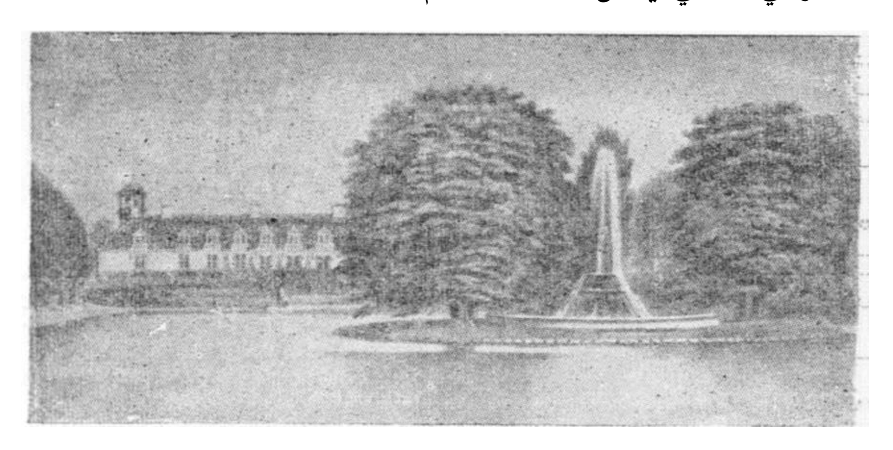
وثمة شيء آخر تميزت به قصصه الأسطورية وهو الحنو إلى كل من أساءت إليه الحياة، ولقد كان ذلك نغمة جديدة في الأدب الدنماركي على أن قصصه لم تكن خالية من ومضات المرح والسخرية. لقد كانت كل قصة

تحوي نقطة من دمائه، ولعله من أجل هذا السبب بقيت قصصه حية خالدة على مر الأيام.

***

إقامته في بيوت الأعيان:

عرف أندرس طريقه إذن حوالي سنة ١٨٤٨ أدرك أن ما يلائمه ليس المسرحيات أو القصص الطويلة التي جعلته في مؤخرة الصف، بل أن الأساطير هي التي طيرت شهرته في الداخل والخارج. وفي الوقت الذي أخذ مستقبله يستدير نحو الاتجاه المستقيم اكتشف أندرسن القالب المعيشي الذي يتناسب مع حياته الوحيدة القلقة، فكان يقضي شهور الشتاء في كوبنهاجن حيث المسارح والأصدقاء، ولكنه عادة كان يغادر المدينة إما إلى الخارج وإما الهجوع إلى بيوت كبار الأعيان بالريف الدانمراكي ليقضي في كل منها بضعة أيام.



أحد بيوت الأعيان في جلوروب

ولقد كثر عدد أصدقائه من هؤلاء الأعيان عاما بعد عام، ولعل أكثر البيوت ترددا في كتاباته هي التي زارها في (ليكيشولم) و (جلوروب) و(هولشلنبورج) حيث كان يقضي بضعة أيام وهو في طريقه إلى الخارج أو في طريق عودته أو في أعياد الميلاد.

وكان أكثر ما يجذبه إلى تلك البيوت هو ميله إلى البقاع الهادئة ذات المناظر الطبيعية الخلابة «في هذا العالم الهاديء، عالم البحيرات والغابات والمروج الخضر التي تمرح فيها الطيور بمختلف أنواعها، لم أسمع لغو الحديث عن الساسة والسياسة، أو تفاهة الأحاديث عن الفلسفة والسفسطة. وإنما أسمع فقط همسات الطبيعة الخالدة التي تنفذ إلى أعماق قلبي».

كان من الطبيعي إذن أن تؤتي الحياة في تلك القصور أكلها، وأن يخرج لنا أندرسن مجموعة من الأعمال الهامة في تلك الفترات التي قضاها وسط الهدوء والبساطة والجمال. ونذكر من هذه الأعمال (العائلة السعيدة) و(العندليب) و(البستاني والسيد) وغيرها.

***

إلى الخارج:

لا يعرف كاتب في ذلك العصر قام بهذا العدد من الرحلات الطويلة مثل ما فعل أندرسن. ولم يكن السفر في نظره نوعا من التسلية أو ضربا من المتعة، بل كان يراه ضرورة وعنصراً هاماً للبحث عن الانطباعات التي

تذكي خياله وتحطم سياج الألم واليأس الذي كان بغلف قلبه في أغلب الأحايين. وهو يقول في هذا المعنى: «في السفر حياة.. إن غذاء روحي الأمثل هو الطبيعة بكل ما فيها من روعة وشموخ، والسفر جزء من عملي كشاعر».

لم يكد أندرسن يمكث بضعة شهور في كوبنهاجن حتى تنزعه نفسه إلى الرحيل مرة أخرى. فقام بتدبر مركزه المالي ووضع في اعتباره كل الظروف التي تحيط به إزاء رحلته الجديدة بعد أن عانى كثيرا من الضيق المالي الذي اكتنفه في أثناء وجوده في ألمانيا.. «لقد بدأت أتعلم كيف أسافر بطريقة اقتصادية، فالعقل– وليس الشعر– هو المطلوب عند السفر».

ولقد مارس أندرسن في رحلاته التي كانت بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٧٠ جميع وسائل الانتقال المعروفة في تلك الأيام من الحمار إلى البواخر والقطار. وكان يحس– لكثرة ما لاقاه في أسفاره من مشقة– بالبهجة كلما ظهرت وسيلة جديدة تختصر المسافات وتهيء للمسافر مركبا سهلا، ويرحب بكل خطوة تقدم في هذا المضمار.

على أن كل همه كان الرحيل الدائم بصرف النظر عن صنوف التعب التي كان يلقاها. فقام في عام ١٨٤٧ بجولة طويلة بدأها بانجلترا فسويسرا فروما فأسبانيا فالبرتغال فباريس، كما زار السويد والنرويج.

ولقد كان أول هدف له من هذه السفريات البحث عن مادة للكتابة.. «عندما أكون في الخارج لا أعرف الراحة منذ الصباح حتى المساء. إنني لا أملك إلا أن أنظر وأنظر وإلا أن أفتح أفكاري على

مصراعيها للبلاد والشعوب والجبال والبحار. لقد كنت في أول الأمر أحس بهيجان ينبثق في داخلي، وبعد فترة تهتز نفسي ثم تهدأ لتخرج منها البراعم حية نابضة».

أن نظرة أندرسن الحادة وخياله اللماح جعلا من كتاباته أدبا خالدا. وأكسبا أعماله الوصفية مكامة رفيعة بين إنتاجه. لقد كان لأندرسن عقلية الصحفي وخيال الفنان والأسلوب الرقيق الذي يقطر عذوبة وسهولة.

وكان الهدف (الثاني) لأندرسن من هذه الرحلات هو التزود بصداقات جديدة في كل مكان، فقد تميزت شخصيته منذ الطفولة بالرغبة في التعرف على الناس، وازدادت هذه الرغبة على مر الأيام وخاصة عندما استرعت أعماله أنظار عدد غير قليل من الناس في الداخل والخارج.

ومما هو جدير بالذكر أنه كان يبدو أكثر ميلا إلى الفنانين الذين خرجوا– مثله– من بيوت فقيرة، فنجده قد انعطف في روما سنة **١٨٣٣** إلى المثال الدنماركي «تورفالدسن»، وطاب خاطره عندما علم أن ذلك الفنان الكبير يشق طريقه المليء بالأشواك في عزيمة لا يتطرق إليها اليأس.



المثال الدنماركي «تورفالدسن»

وأحس أندرسن أيضاً أن هناك تشابها كبيراً بين حياته وحياة الموسيقار النرويجي «أول بل». ولعل هذه النزعة بالذات هي التي جعلته يسعى إلى التعرف بالكاتب الانجليزي الكبير (تشارلز ديكنز) في أثناء زيارته لانجلترا عام ١٨٤٧، ١٨٥٧ فقد وجد أندرسن في حياة ديكنز ملامح غير بعيدة عن ملامح حياته.



تشارلز ديكنز ..أحس أندرسن أن شقاء طفولتهما يربط روحيهما برباط وثيق

على أن حياة أندرسن لم تتأثر بفنان ما من فناني عصره مثلما تأثرت بالمغنية السويدية «جيني لند».لقد جاءت الفنانة الشابة إلى كوبنهاجن سنة ١٨٤٠ وكانت تتمتع بشهرة كبيرة، وفي أثناء زيارتها الثانية لكوبنهاجن ١٨٤٣ نمت بينها وبين أندرسن معرفة وثيقة أدت به إلى أن وقع في حبها.. «إنني أعلم أنها ليست سعيدة وأنها مرت بأيام عصيبة».

وفي عام ١٨٤٥ قابلها أندرسن في برلين حيث حل عليهما عيد رأس السنة الميلادية وعرف في أثناء احتفالهما بالعيد أن حبهما ليس متبادلا وأنها تنظر له كأخ لا كحبيب. وقد ألهمته هذه التجربة العميقة عددا من القصص الخالدة، مثل (الكروان) و(الملاك) و(تحت شجرة الصفصاف). ولعل أروع هذه الأعمال جميعا هي قصة (الكروان) التي تتحدث عن كروان كانت له مكانة أثيرة عند أحد الملوك، فجاء الطائر يوما إلى الملك يطلب منه أن يمنحه حريته بعيدا عن قصره حيث يستطيع الغناء للجميع على السواء. (أنظر الفصل الثالث).

ولقد شاهد أندرسن «جيني لند» بعد ذلك عدة مرات، ولكنها بعد أن تزوجت عرف أن حياته قد دمغت بالوحدة والحرمان إلى الأبد. ولقد سجل أندرسن هذه التجربة في كتابه (أسطورة حياتي) فقال:

«ما من فنان أفهمني قدسية الفن مثل (جيني لند)، فقد تعلمت منها كيف أنه لابد لنا أن ننسى أنفسنا في سبيل ما هو أهم وأخطر، وما من كتاب أو شخص كان له ذلك الأثر النبيل العظيم على نفسي كشاعر مثل ذلك الأثر الذي كان لجيني لند».



جيني لند

واتسعت دائرة معارفه بازدياد شهرته ككاتب، فأصبحت له صداقات وثيقة بعدد كبير جداً من أساطين الأدب في جميع أنحاء أوروبا مثل (ليست) و(واجنر) و(هاين) و(فيكتور هوجو) و(بلزاك) و(دوماس الأب) و «لأمرتين» و«الفرد دي فيني» وغيرهم ممن تربعوا على عرش الفن والأدب في منتصف القرن التاسع عشر.

وقد أدت ألمانيا دوراً خاصاً في حياته، فقد كانت العلاقات على ما

يرام بين الدنمارك وألمانيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر وكان الأدب الألماني وبخاصة أعمال (جوته) و(شيلر) من القراءات المفضلة لدى صفوة المثقفين في الدنمارك. ولم ينس أندرسن الاستقبال الطيب الذي لقيته أعماله الأولى في ألمانيا، فكان يحس نحوها بالعرفان وخاصة عندما يقارن ذلك التشجيع بما جابهه من نكران ومهانة في بلده. من هنا كانت لألمانيا مكانة أثيرة في قلبه، وكانت الأيام التي يقضيها في (ويمار) من أسعد أيام حياته. وقد تعرف هناك بألمع الشخصيات وأكابر القوم ونال من الجميع كل تكريم. فلما قامت الحرب بين الدنمارك وبروسيا صارت نفس أندرسن نهبا لآلام عنيفة، فلم يكن في مقدوره أن يكره ألمانيا، كما أنه كان يشعر قلبه يتمزق لأجل وطنه. وقد كان حياده هذا مثأر صعاب كثيرة بالنسبة لأندرسن، التي أصبحت ترددها الأجيال كلها بعده، والتي أستهلها بقوله: «في الدنمارك، أرض البساطة كان مولدي» وهي منشورة في الفصل الرابع من هذا الكتاب. ولقد كتب إلى أدوارد كولين يرد على ما أثير حوله في هذا الصدد: «إنني أكثر الشعراء دانمركية، فلقد ولدت فوق هذه التربة وعليها أموت– ولسوف يعترف الجميع، داخل هذه البلاد وخارجها، إنني كنت أخلص الشعراء لوطني».

***

تقدير:

«آواه يا ادوارد! إن روحي لتتشوق إلى أن يعترف بي اعترافاً حقيقياً كما يتوق العطشان إلى جرعة ماء!».

هكذا كتب أندرسن في سنة ١٨٣٣ إلى أدوارد كولين. وفي سنة ١٨٣٦ كتب يقول: «آمل أن يرتفع من أجلي صوت واحد في ألمانيا ولسوف تجد الجميع هنا يعترفون بمواهبي ويضمونني في المكان الصحيح». وأخذ يدق على هذا الوتر بعد ذلك في كل خطاباته. ولقد أستقر بباله أنه لا بد أن سيصبح مشهورا، وأن الناس خارج وطنه قد أدركوا بوارق المجد الكامنة في أعماله وتغاضوا عما يمكن أن يكون بهذه الأعمال من هنات أو مواطن ضعف، وأبرزوا ما فيها من جمال، أما الناس في الدنمارك فقد جعلوا كل همهم إبراز ضعفه وتثبيط همته.

والواقع أنه لقى تكريما مبكرا من الناس خارج وطنه، وإذا كان لنا أن نشير إلى فترة معينة وقف فيها أندرسن– في حياته– فوق هامة الشهرة والمجد فلا بد أن تكون هذه الفترة هي السنوات التي ما بين ١٨٤٥، ١٨٥٠.

فقد كان ينعم في تلك السنوات بالاستقرار الذهني بعد أن اكتشف الشكل الأدبي الأكثر ملاءمة له، وكان يتمتع بحيوية وقدرة فائقة على الكتابة، فضلاً عن علاقات المودة والحب التي كانت تربطه بأساطين الفن والأدب في كل مكان بأوربا.

ولم تكن رحلاته في (الأربعينات والخمسينات) سوى مواكب متصلة من الحفاوة والتكريم. ولا أظن أن كاتبا عالميا نال من التشريف إبان حياته مثلما نال أندرسن، فقد حدث في أثناء زيارته للبرتغال أن رفعت السفن الدنماركية الراسية في ميناء برشلونة أعلامها تكريما له. وفي لندن قضى ثلاثة أسابيع كانت كلها أعياداً: «لقد كنت أدعي للعصر وكل مساء، وبعد ذك

أذهب إلى الحفلات التي تقام إلى ساعة متأخرة من الليل وجميع الأماكن التي ارتدتها كانت تغص بالناس، حتى أنك لا تجد مكاناً لقدم في القاعات أو على السلالم.. لقد كانت الدعوات التي وجهت إلى فوق احتمالي». وقد دعاه في لندن اللورد (بالمرستون)، والتقى هناك أيضاً بدوق «كيمبردج» وباقة كبيرة من زهور المجتمع اللندني.

وبعد ويمار سنة ١٨٤٤ دعته الدوقة (أوجستنبرج) لزيارتهم، فلبى الدعوة وقضى أسبوعين كاملين ضيفا على العائلة الدوقية، «وهناك وسط هذا البهاء الدوقى خطرت لي فكرة قصة أسطورية تصف ما يعانيه أناس آخرون من فاقة وعوز. ولقد اسميتها (بائعة الكبريت الصغيرة)».

وفي درسن نزل ضيفا على الملك «فريدريك أوجست الثاني» والملكة «ميري». وفي سنة ١٨٤٦ زار الدوقة «صوفي» دوقه النمسا. وفي برلين سنة ١٨٤٥ دعى إلى حفل عشاء في بوتسدام وهناك قدم له الملك وسام النسر الأحمر من الدرجة الثالثة.

وفي أثناء زيارته الطويلة للسويد سنة ١٨٤٩ استضافه الملك «أوسكار الأول»، كما زار الملك «ماكس» ملك بافاريا في سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٤. وكان يطلب منه حيثما حل أن يقرأ بصوت عال بعض قصصه الأسطورية، وكان يقوم بذلك في رضا.

ولم يفت الشاعر أن يقص على الشخصيات الملكية طرفا من حياته المفعمة بالكفاح والأمل، وقد علق الملك «ماكس» يوما على ما لاقاه أندرسن في حياته قائلا له: «لا بد أنك تحس بالسعادة الفائقة عندما ترى

نفسك قد تغلبت على كل شيء وحظيت بالمجد في النهاية».



اندرسن يقرأ أقاصيصه الأسطورية في بيت الدوقة (أوجستنبرج) .. الرسم بريشة هارتمان سنة ١٨٤٥

كما لم يفته أن يؤكد في خطاباته لآل كولنز إلى أي مدى كان يعينه، الاعتراف لفنه، فكتب وهو في ضيافة الملك «ماكس»: «وهكذا عبر لي الملك عن ابتهاجه بما وصلت إليه وحققته بعد أن قطعت ذلك الطريق الشائك الطويل، وأخبرني بأنه سعد كثيرا عندما سمع أن أدبي معترف به في ألمانيا أيضا».

وكتب في عام ١٨٤٦ يقول: «سمعت منهم أنهم يبتهجون لأعمالي في انجلترا.. وأن طبعة فاخرة على وشك الصدور في ألمانيا.. إنني لست ميئوسا منه إذن كما يظن معظم الناس في بلادي». وفي العام نفسه كتب

يقول: «بالرغم من أن الترجمات التي تتداولها أوروبا لأعمالي ليست جيدة– فأنني لا أملك إلا الشعور بالرضا».

وكتب في لندن عام ١٨٤٧ معبرا عن قلقه على مستقبله: «لقد حصلت على كل ما يمكن أن يتصوره إنسان من التقدير والتكريم. إنني أعيش الآن على القمة، وأنني متجه منذ اللحظة إلى القاع.. فهل يمكن أن تكون هناك أكثر مما اسبغته على هذه المدنة العظيمة؟». ولكن إلى جوار هذه الرغبة في التقدم والسمو، وإلى جانب الانتصارات التي أحرزها، والأمجاد التي لم ينلها كاتب آخر إبان حياته، كانت نفس أندرسن تنطوي على قدر غير قليل من الخنوع: «ما من شك في أنني نجحت في أن أصبح أشهر دانمركي في العالم، ولكني أحياناً ما أقع تحت وطاة حال من الخضوع تنهمر فيها الدموع من عيني كالسيل، فكلما صعد بي الحظ خطوات إلى أعلى يزداد احساسي بالتفاهة وعدم جدارتي بكل ما أسبغ الله علي من نعم».

وأحيانا ما تشتد كآبته وتبدو له كل هذه الدنيا ضربا من العبث «إنني لا أحس بالسعادة على الاطلاق. أعتقد أنه من النكران أن أقول ذلك، ولكنني بدأت أدرك الضحالة المتناهية التي تنطوي عليها أية شهرة أو مجد في هذا العالم».

ولعل العقدة الوحيدة التي جعلته يسيء الظن ببلده ويبالغ في المقارنة بين الحفاوة به في الخارج والنقد الذي لقيه في الداخل– لعل هذه العقدة هي المسرح– ولقد كشف أدوارد كولين عن هذه العقدة عندما قال سنة

١٨٤٦: « ما من شيء يقف بين أندرسون وبين الدنمارك سوى المسرح الملكي».. «وهكذا تعود أدراجك دائما إلى طرق أبواب ذلك المسرح الملعون. إن هذا يؤلمني منك أشد الألم. هل اعترفت بك ألمانيا ككاتب مسرحي، أو أنها تنظر إليك ككاتب قصص أسطورية؟ ألم يحب الناس في الدنمارك تلك القصص؟ انني أعتقد أنهم يحبونها باخلاص وعمق أكثر مما يفعل الألمان».

ختام القصة

كان أندرسن يعرف تماما أن مسرحياته لم تكن فعلا هي سبب ما يلقاه من تقدير وتكريم، ومن ثم بدأ يقتنع برأي «أدوارد» والألم يعتصر قلبه، وأيقن أنه لا مناص من أن يركز حياته الأدبية في تأليف الأقاصيص وعلى مر السنين بدأ مواطنوه تدريجيا يقدرونه كما ينبغي ويعترفون بنبوغه كمؤلف أروع أقاصيص للأطفال. ونشرت بعض قصائده في كل مجموعة من أشعار كبار الشعراء الدنماركيين.

ثم جدت ظروف عطفته نهائيا إلى بلاده وأرغمته على تركيز جهوده فيها.. فإن هزيمة عام ١٨٦٤ التي أرغمت فيها الدنمارك على النزول عن مقاطعتي «شلسويج» و«هولشتاين» لألمانيا، كانت سببا لمرارة كل دانمراكي. وتم الوفاق بين أندرسن وبلده بعد هذه التجربة، وعوضه بلده كل ما لاقاه من مرارة وحرمان فخلع عليه كل شرف وفخار وزاد الملك كريستيان معاشه ومنح بعد ذلك لقب «البروفسور» ثم «المستشار».

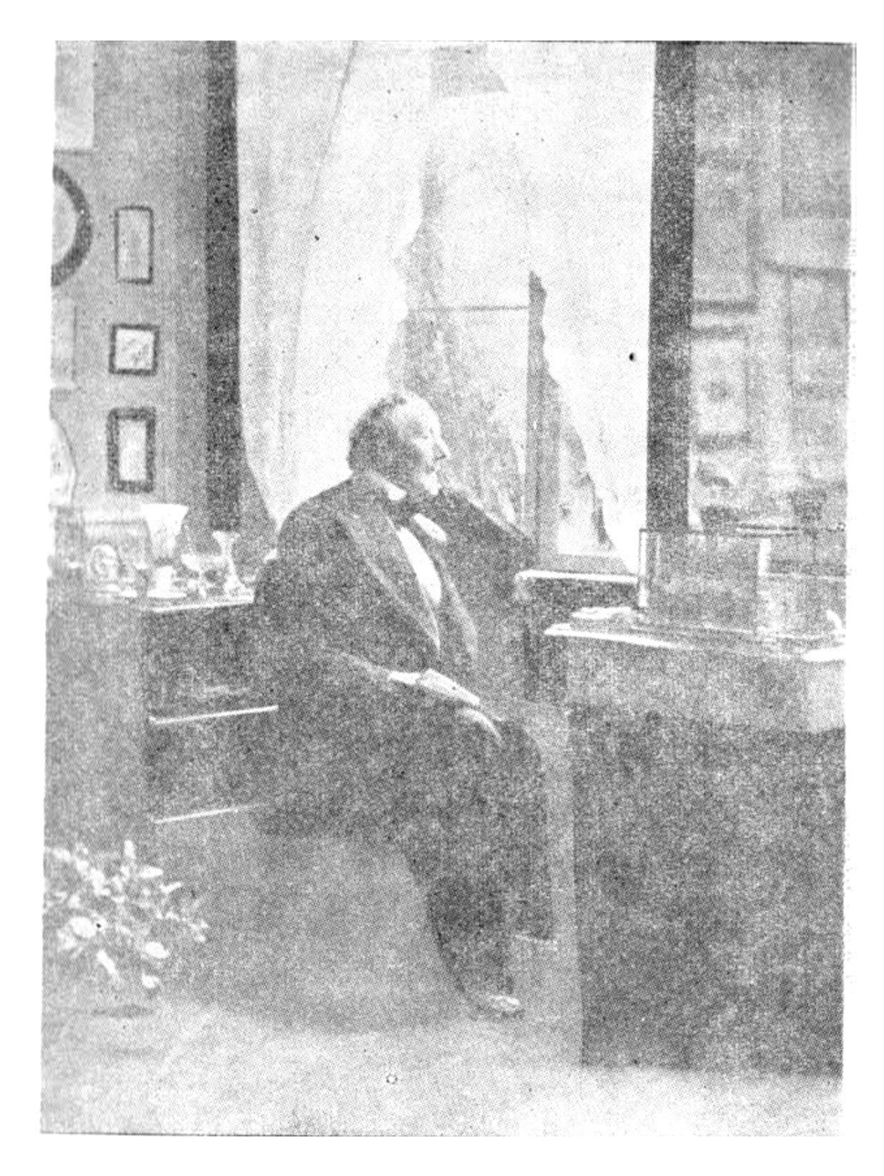
وشعر أندرسن أن حياته أصبحت تشبه القصص الأسطورية إلى حد

كبير. فأي بون شاسع بين طفولته في أودنز وهذه المكانة الرفيعة التي آلت إليها رحلة حياته في كوبنهاجن، تلك الرحلة التي قضاها ضاربا في بقاع الأرض؟

وفي شهر ديسمبر عام ١٨٦٧ دعي أندرسن إلى مدينة «أودنز» ليشهد الاحتفال بتكريمه وليقضي فترة في ضيافة الأسقف «أنجلشوفت» الذي كان صاحب فكرة الاحتفال. وفي أثناء الاحتفال تذكر أندرسن قصة علاء الدين الذي بنى قلعته الضخمة بمصاحبة السحري فتوجه– مثلما فعل علاء الدين– إلى النافذة وقال: «لقد كنت أذرع هذا الطريق وأنا طفل صغير ولقد منحت أنا أيضا مصباحا سحريا من روح الله، إنه مصباح الشعر. وعندما شمل هذا المصباح بضوئه عدة بلدان، وهلل الناس له وقالوا هذا النور آت إلينا من الدنمارك– في هذه اللحظة– دق قلبي بالبهجة».

وكان أندرسن قد بلغ به الارهاق أشده، ويبدو أن حياته القاسية وفاقته، وسوء تغذيته في صباه، وتوتر أعصابه طوال عمره قد هدمت جسمه. وأصبح دائم الشكوى من الأمراض.

ومنذ حوالي سنة ١٨٧٢ بدأت قوته تنهار وازداد توتر أعصابه وعجلت بوفاته إصابته بسرطان في الكبد، فلفظ أنفاسه الأخيرة في السادس من أغسطس سنة ١٨٧٥.



"ختام القصة" أندرسن في عام ١٨٧٤

الفصل الثاني

القصة الأسطورية قبل أندرسن وبعده

مقدمة

١- نشأة الأساطير.

في أذهان بعض الناس أن الأساطير ليست سوى «حواديت» تورى حول «المدفأة» في ليالي الشتاء الباردة، ولا هدف من ورائها إلا التسلية والمتعة وقطع الوقت.

ويخطيء هؤلاء إذ يأخذون الأساطير على أنها خرافة وحسب، ليس فيها من الواقع أو الأهداف شيء سوى ما تضم من خيالات غريبة شاردة لا تصلح لغير الأطفال.

فما كانت الأساطير شيئا من ذلك قط وإلا فما استطاعت أن تكون هي العمد الخالدة التي قامت عليها أركان الأدب العالمي، وما أصبحت هي الجذور التي تفرعت منها هذه الألوان المتباينة من الآداب والفنون.

فقد رافقت الأسطورة الإنسان منذ نشأته وما تزال ترافقه، وفي كل أسطورة تتمثل عقائد أصحابها ومثلهم وعاداتهم، وتتضح نظرتهم وفلسفتهم في الحياة. وهي تعطي فكرة كاملة عن الروح المتأصل في هذه البلاد التي أتحدث في صراعها العنيف من أجل الحرية والخير والسلام.

وما من أمة أرتفع شأنها أو هان إلا ولها أساطير، وهي في كل ألوانها– سواء كانت الهية و بطولية أو غرامية أو خلقية أو فكاهية– إنما تمثل جزءا ضخما من التراث القومي الذي يتلقاه الناس جيلا بعد جيل، ويمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانبا حيويا في تكوينهم وحيواتهم.

ولاشك أن كل هذه الأساطير قائمة على أساس من الحقيقة. غير أن الخيال الإنساني مع مرور الأيام ألبس الحقيقة من الأوهام أردية جعلتها بعيدة عن المعقول، وأن تكن قريبة محببة إلى النفوس.

ومع ذلك ،فأغلب الأساطير يدور حول إنشاء حياة أفضل، وهي محاولات نشأت مع نشوء الإنسان، يفسر بها أهم المشكلات التي واجهته في بدء حياته على الأرض، وعلى رأسها مشكلة خلق الكون، ويجتاز بها الهوة العالم الذي يعيش فيه، والكون الغامض الذي يحيط به، ويحاول بها معرفة سر القوى المسيطرة على العالم كله، ولماذا يقع الشر؟ وكيف ينتصر الخير؟

وبالرغم من أن الإنسان يظن نفسه قد تحرر اليوم من هذه المحاولات، فإنه في غروره، ينسى أن محاولاته الحالية للوصول إلى الكواكب، ومغالبة الفضاء ليست سوى محاولات أخرى متطورة لمعرفة أسرار الكون. وهي– وإن كانت اليوم تبلغ ذروة عالية من ذرى الحضارة– لا تختلف في شيء عما كان يملأ ذهن الإنسان القديم، بالقياس إلى المراحل الحضارية التي كان يعيش فيها ويترعرع بين أحضانها.

وتتضح حقيقة الأساطير عندما يتلمس المرء قصتها منذ بدأت، وقصة

منشأ الأساطير نفسه منذ خلق..

فقد عاش الإنسان أول أمره حياة بدائية محوطة بمئات الأخطار والأسرار، وحملته مدهشات الكون وأعاجيبه التي لم يستطع ادراكها علميا على أن يتوهم لها تفسيرا، ويتخيل أصولا ووقائع يرتاح إليها وتزيل حيرة نفسه..

وكان أول ما ملأ رأسه من تلك الخوارق التي تحيط به، إيمانه بوجود قوى مسيطرة خالقة عاقلة ذات قدرة أسمى من قدرة كل العناصر والكائنات. وبدأ الإنسان يتأمل تلك القوى، ويجسم كل شيء خارق منها يحسه ولا يستطيع الوصول إليه فيجعله ألها، يعمل على استرضائه بتقديم الضحايا والقرابين.. فالنار والرياح والشمس والقمر والنجوم والمياه والبرق والرعد كلها آلهة طفق الإنسان ينسج حولها القصص ويتناقلها خلفا عن سلف، جيلا بعد جيل.

ولكن الانسان أخذ يعجب بعد ذلك لكل تلك القوى.. كيف جاءت هي الأخرى؟ لا بد أن هناك شيئا خالقا، شيئا أقوى من كل شيء، أستطاع أن يصنع وحده كل تلك الأشياء..

ومن هنا كانت أقدم الأساطير التي وضعها الإنسان هي أساطير الخلق، نسجها حافلة بما تصوره لهذا الخالق، وكيف أقام السماء والأرض، وكيف جاءت الكائنات على اختلاف صورها وأشكالها لتعمر الكون..

تصور الإنسان– أول ما تصور– الخالق، مصدرا رئيسيا للقوة والخلق، يهيمن على كل شيء، ويسيطر على أركان الكون الواسع الشاسع

الأطراف. تصور هذا الخالق ومن حوله الآلهة فيثيبون المحسن، وينكلون بالمسيء.

عندما تصور الإنسان مجتمع الآلهة وتخيله، بدأ يربط بينه وبين مجتمعه، حيث كان لابد من اتصال الآلهة والبشر، واشتباك أعمال هؤلاء بأعمال أولئك فنشأت صور جديدة ترسم ذلك الاتصال، ثم الاشتباك، ثم الصراع الذي كان لا بد أن يكون..

ذلك الصراع الذي يتمثل في طوفان شديد ينتهي بالقضاء على البشر المفسدين إلا واحدا تصطفيه الآلهة فينجو في فلك يصنعه، وعلى يديه تعود الحياة من جديد.

وبدت صورة الطوفان واضحة في مختلف الأساطير، وتماثلت صورة الإنسان الذي اصطفته السماء، فهو «شمس نيشتين» عند البابليين، و«تجتوج» عند السومريين، و«كريزوتروس» عند الأشوريين، و«دوكاليون» عند الإغريق.

ثم عاد الإنسان يطل إلى الأشياء الغامضة التي تحيط به.. فتوهم أن لكل شيء حوله الصفات التي له نفسها وافترض أن للجماد روحا وللنبات روحا وللآلهة روحا وأنها تتصرف تماما كالإنسان: تحب وتكره. وترضى وتغضب، وتفعل كل ما يفعله هو نفسه..

وكان الانسان مستمرا في صراعه مع الطبيعة، ولكن وسائل الحرب العادية البسيطة لم تعد تكفيه في هذا الصراع المرير، فبدأ يتصور بخياله كائنات تستطيع بقواها الخارقة منازلة أعدائه، وصور أبطالا خارقين تتمثل

فيهم مظاهر القوة عند الحيوان ومظاهر الجبروت عند الآلهة. ومن هنا ظهر «جلجميش» عند البابليين، و«رستم» عند الفرس و«هرقل» عند الإغريق.

ولم يكتف الإنسان بذلك، فبدأ يتخيل من جديد كائنات أخرى تستطيع القيام بما يعجز عن الوصول إليه. وهنا ظهر الجن في أساطير الإنسان. وأدخلهم دائما في صراعه بين الخير والشر، وبين البشر والآلهة، برغم أنه لا يراهم رأي العين.

غير أن أشياء أخرى في تفكير الإنسان دفعته إلى البحث عن وسائل جديدة لبلوغ أهدافه– وسائل يستطيع أن يلمسها ويتبنيها بنفسه في الوقن الذي لا يستطيع فيه أن يلمس أشخاص الجن.

وهنا اتجه الإنسان إلى السحر. وأصبح السحر في عقيدة القدماء بمثابة الروح من شعائر تلك العبادات. وشاع أنه بالرقية أو التعويذة أو القسم يستطيع أن يجبر القوى الخفية على أن تطيع الإنسان. حتى أننا نقرأ في ألف ليلة وليلة كيف أن من ينطق بكلمة «أفتح يا سمسم» يلزم هذه القوى أن تشق الصخرة وتفتحها.

ومهما قيل من تشابه الأساطير أساسا في كل أنحاء الأرض، فإن هناك اختلافا واضحاً في تفاصيلها، فكل أمة شكلت أساطيرها على حسب ظروفها الطبيعية ذاتها.. فالمجتمعات التي استقرت في أرض زراعية تشكل أساطيرها في أهم ما يشغلها وهو الماء والنماء وخصب الأرض، والمجتمعات التي عاشت على الصيد تشكل أساطيرها فيما يشغلها من الحيوان وأدوات

الصيد وشياطين الغاب، والمجتمعات التي يحيط بها البحر تشكل أساطيرها على العواطف والأمواج والحور والجنيات.. وهكذا.

٢- الأسطورة «والفولكلور»:

الأسطورة عادة هي قصة الأعمال التي يقوم بها أحد الآلهة– في العقائد القديمة– أو أحدى الخوارق الطبيعية من الأبطال.. تبدو فيها محاولات الإنسان لتفسير علاقاته بالكون والعالم، لو تفسير وجود بعض العادات والنظم الاجتماعية أو الخصائص المميزة للبيئة التي يعيش فيها خالق الأساطير نفسه. وفي هذه الحال تنطوي على فهم ديني معين بالنسبة للشعب الذى رواها.

والفولكلور– أو القصص الشعبي– يروي تراث البشرية في أطوارها الأولى من عادات وعقائد وقصص، وفن.. حكايات بدائية لها أصلها الأسطوري دون شك، ولها أيضاً قيمتها الفنية والجمالية الخالصة.

أو بمعني آخر: الأسطورة دراسة للصور البدائية الأولى للدين، أما غيرها من الحكايات الشعبية القديمة فدراسة للعقائد والعادات البدائية التي ما زالت تمارس حتى اليوم. وفضل هذه الألوان مجتمعة هو أنها تقدم لنا صورا من التفكير القديم فيما يتصل بالدين أو بالعقيدة أو بالتقاليد أو بالبطولة والخيال.

٣- الخرافة في الأساطير:

إن التفسير العلمي للخرافة في الأساطير هو أن الإنسان البدائي كانت تجتاحه رغبة فضولية في معرفة أمور الحياة، جعلت الإنسان متعطشا

دائما إلى المعرفة، وإلى تنشيط أدراكه العقلي.

يقول الدكتور تيلور في كتابه «الحضارة البدائية»: «حين كان ذهن الإنسان في المرحلة الأسطورية يعجز عن تفسير أية ظاهرة، ولا يجد لها سببا مقنعا، كان يخترع أية قصة لكي يبررها ويفسرها».

ونجد مصداق هذا القول في كل الأساطير البدائية، فمعظم هذه الأساطير ليس إلا محاولة لتفسير ظواهر معينة، وللإجابة عن أسئلة غامضة مثل: ما أصل هذه الظاهرة أو تلك؟ وما سببها. كيف خلق العالم والإنسان؟ وكيف أصبح على ما هو عليه الآن؟ كيف تكونت هذه العادات والأوضاع والطقوس؟ ما السبب في تعدد ألوان الحياة؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة هي التي أدت إلى وجود الأساطير. بل إنها أدت إلى وجود العلوم، وأن كانت علوما بدائية تتخذ أسلوبا قصصياً. وفي هذا يقول الدكتور لانج: «لقد كان الناس في العصور القديمة يؤلفون قصصهم تبعا لنظرتهم الخاصة للأشياء، وأسلوبهم في تفسير الأمور. وهذا وضع طبيعي، لأنهم لم يكونوا يفكرون على أساس المباديء التي يضعها الباحثون في العصر الحدث أمامهم عند تفسيرهم لهذه الأمور».

ويقول الدكتور مويللر: « الإنسان البدائي لم يكن يفكر كما نفكر نحن، بل ولم يفكر بالطريقة التي نتصور نحن الآن إنه كان يفكر بها أيضاً».

أولاً: القصة الأسطورية قبل أندرسن

١.تمهيد:

أدركنا مما سبق أن الأدب المدون الذي نعرف أسماء مؤلفيه لم يكن أول ما عرفته البشرية من آداب في تاريخها الطويل. فقد سبق ذلك مراحل عدة كانت الأداب فيها غفلا من الأسماء، وكانت الأجيال تتناقلها بالكلمة المسموعة، إذ لم تكن هناك وسائل للتسجيل، كما لم يوجد المؤرخون الذين يتتبعون التراث الذهني عبر القرون. ومع ذلك فقد انتقلت قصيدة الشعر أو الأقصوصة من جيل إلى جيل بطريق الرواية والسمع. ولعل ما أدركته البشرية من هذا التراث بعد أن توافرت لها وسائل الكتابة والتسجيل لم يكن سوى آثار واهنة وقطرات من بحر غزير.

وبرغم ذلك فقد وصلنا من تلك الأحقاب السحيقة عدد لا يستهان به من القصص والملاحم التي كانت وما تزال الورد الصافي لعباقرة الأدب والفن في جميع أنحاء العالم.

فهناك البطوليات والأساطير الدينية التي كانت حافلة بالمشاهد الحية والصور الوصفية الرائعة.

وهناك «الأمثال» التي كانت تجمع بين المتعة والمغزى الأخلاقي. والقصص التي كانت لا تهدف إلا إلى التسلية بغض النظر عما تتركه هذه التسلية من أثر أخلاقي أو غير أهلاقي على الجماهير.

كما كان هناك أيضا القصص الشعبي القائم على الخيالات الشعرية المحدودة التي لا ترقى إلى مستوى الملاحم ولا تستخدم الغالب الدرامي.

وإذا نظرنا إلى المجموعات الخمس من «الأقاصيص الأسطورية» التي خلفها أندرسن نجد أنها تحوي أشياء أخرى غير الأقاصيص الأسطورية، فيها حكايات نثرية بعضها يصل إلى الرواية الطويلة مثل «قصة من الكثبان»، وهناك بعض الأساطير المبنية على العقائد المحلية مثل «الملاك»، وهناك الأمثال مثل «القوقعة وشجيرة الورد». وهناك أخيراً لقطات من الحياة اليومية، وخيالات على شكل أشعار منثورة مثل المجموعة التي ضمنها كتابة «المصور بلا صور» والتي كان يمكن أن تدخل في نطاق قصصه الأسطورية الـ ١٥٦.

من هذا يتبين لنا أن أندرسن قد طرق جميع الأشكال القصصية التي كانت معروفة في ذلك الوقت. على أن ذلك النوع بالذات من الأقاصيص القصيرة البسيطة التي تحتوي على مضمون طبيعي أو خارق للطبيعة، هي أساس أعماله جميعا وهي العنصر الجوهري بها. أما جميع الأشكال الأخرى فهي لا تذكر إلا لوجودها بجوار هذا النوع الذي تفرد به أندرسن ونقل به القصص الأسطورية عامة إلى أجواء جديدة وصبها في قوالب مبتكرة لا يمكن أن تأتي إلا عن فنان مطبوع وفكر متوقد واحساس دقيق.

٢- مرحلتان:

لعل أول الأقاصيص المعروفة– والتي أصبحت بعد ذلك مصدرا ونموذجا لكل من تلاها من قصص– هي تلك المقطوعات الصغيرة المسماة بالقصص الشعبية، أو «الحواديت» مثل «عقلة الأصبع» و «سندريلا» وغيرهما. أن هذه الأقاصيص تعني بالنسبة للتراث الأدبي ما تعنيه المفاصل

في علم الحيوان، وكلما توافر لها قالب «وتكنيك» سليمان تبينت أصالتها وازدادت أهميتها.

وأهم ما يميز هذا النوع من القصص هو البداية الموحدة التي تكاد تتفق عليها جميعاً، فنادراً ما نجد واحدة لا تبدأ بهذا «الكليشيه» الذي لا يتغير: «ذات يوم..» أو «في سالف العصر والأوان..». وهي تختلف عن صور الأدب الفني بما تتخذه من طابع متشابه في عرض الأحداث، فالحادث الذي يقع قد يروى بالألفاظ نفسها في القصة الأخرى. وعادة ما يكون الأسلوب مختصراً ومبسطاً للغاية وجارياً على نسق موحد مطرد كالحال في قصة «الأخوان الثلاثة» الذين توصف حياتهم بعبارات تكاد تكون متشابهة. وكذا الأمر عند رسم الشخصيات، فالرجل الطيب شخص لطيف، والماكر ذكي أما السكير فسكير فقط. بل وأحياناً ما يكتفي بأقل من ذلك، فالسكير معروف من أفعاله ولا شيء غير ذلك، أما البطل وأفعاله فهما شيء واحد ومترادفان للملمة واحدة. ولا يعرف القصص الشعبي أي نمط آخر لعلم النفس.

وكذلك الأمر بالنسبة لتصور هذه القصص للعالم الذي نعيش فيه، إذ تقول هذه القصص: أن هناك فئتين من الكائنات: فئة طبيعية وأخرى خارقة للطبيعة، الفئة الأولى مغلوبة على أمرها عاجزة لا تملك حولاً ولا قوة إزاء غيرها، ولكنها قوية بانجازاتها في الحياة. أما الفئة الأخرى وهي الخارقة للطبيعة فذات قوة وسلطان، ولكنها مقيدة بقوانين خفية. فنحن نعرف مثلا أن الإنسان مرتبط بالكلمة التي تصدر منه– من الناحية الأخلاقية فحسب، أما عفريت القمقم فهو عاجز تماماً عن الرجوع فيما

وعد به. وليس له خيار في هذا، ولذلك فإن العفريت يضطر أحياناً– تحت هذا القضاء المحتوم من الطبيعة التي لا ترحم– إلى استعطاف الإنسان على ما فيه من ضعف.

وكثيرا ما نرى الشخصيات تعود لظهور في قصص أخرى بالسمات والملامح نفسها: «فالملك لا هدف منه– غالبا– سوى أن يكون والد الأميرة، و«البطل» هو الذي يأخذ هذه الأميرة ومعها نصف المملكة.. ثم هناك الطفلة اليتيمة وزوجة الأب ألخ... وتتفاعل هذه الشخصيات إزاء المواقف المتشابهة بطرق متشابهة أيضاً: عندما تضيق الحال بالزوجين يأتي إليهما شخص مجهول ليقدم لهما العون نظير أن تعطيه الزوجة مولودها الذي ما يزال جنينا، وإذا رغبت الأميرة في كتمان أمرى ما فإنها تتظاهر بالخرس. وعندما يفقد الزوج زوجته يتزوج مرة أخرى من أجل ابنته الطفلة، ولكن الزوجة الجديدة تدبر للطفلة المكايد والحيل والدسائس التي تجعل أباها يتنكر لها، وهكذا..».

إن الإطار الذي يحيط بالقصة الشعبية هو «الطبيعة» بأجل صورها، وهي لا تبدو فيها سافرة، ولكنها تتدخل في مصير الإنسان بصورة غير مباشرة. وهي مكتظة بالكائنات الغريبة ولديها كثير من القوى الإيجابية الفعالة ولكنها رمزية أيضا، فعند وفاة العاشقين تزهر على قبريهما وردتان وتنبثق عند قبر العذراء زهور السوسن البيضاء. وفي استطاعة «الواصلين» أن يضعوا الطبيعة بكل ما لديها من قوى وما فيها من كائنات طوع إرادتهم ببعض الرقي والتعاويذ.

وتعتبر هذه السمات الأخيرة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ القصة الشعبية، فالقصة الشعبية بصورتها الأصلية تتضمن أساسا من السحر الذي كان يمثل «المعرفة» ويحل محلها عند الشعوب البدائية. وكلما بعدت القصة عن هذا الاعتقاد في الخوارق الطبيعية قل نصيبها من البدائية.

إن القصص الشعبية عالمية المدى، فأنت تجد في كل مكان القصص نفسها أو على الأقل الموضوعات نفسها برغم ما يفيض عليها أحيانا من ملامح أقليمية، أو صبغات قومية، فإذا أزيلت هذه القشرة بدا الجوهر واحداً في كل أنحاء الدنيا، والسبب ببساطة هو أن القصة التي تصاغ في قالب يتلاءم مع مكان معين لا تحمل في طياتها إمكانيات العالمية، وبمرور الوقت نجد أنها قد أصبحت تقليداً محلياً سرعان ما يموت.

والقصص الشعبية بقدر ما هي غير مقرونة بوطن فإنها أيضاً لا عمر لها، فالنصوص التي وردت في الأدب الكلاسيكي القديم تكشف لنا عن الخصائص القائمة نفسها في أي بلد وفي أي زمان، وليست الروائع التي خلدت كثيراً من الأدباء في جميع أنحاء العالم سوى استيعاب جديد لأساطير خالدة نشرت باللاتينية اليونانية منذ أقدم العصور.

***

المرحلة الأخرى من القصص الشعبي بعد المرحلة البدائية أتت بنوع من القصص لم يكن هدفه سوى اضحاك الناس. ويسمى هذا النوع بالفابليو**Fabliaux** وهو عبارة عن حكايات هزلية منظومة. وقد وجدت أول ما وجدت في الأوديسا وفي بعض أعمال هيرودوت، كما ظهرت في

أول هزلية في التاريخ «ساتيريكون» التي كتبها «بترونيوس» أيام نيرون. وسرعان ما عبرت هذه القصص حدود فرنسا لتظهر في أعمال «تشوسر» بأنجلترا، وأعمال بوكاتشيو في إيطاليا.

ولغة قصص الفابليو هي في جوهرها اللغة نفسها في قصص الأطفال على أن هناك عدة اختلافات أساسية بينهما.

فقصص الفابليو لا تبدي معرفة كبيرة بالنباتات والحيوانات بخلاف الأخرى.

كما أن قصص الأطفال لا تعني كثيراً بأسماء الأشخاص الذين يرد ذكرهم فيها فإننا نجد غالباً «الراعي» و«قاطع الأشجار» و«الصياد» و«الرجل الفقير» أو«عقلة الأصبع».

أما قصص الفابليو فإنها تورد الاسم العلم لكل شخصياتها تقريبا وإن كان هذا يأتي بطريقة هزلية بطبيعة الحال.

ومن ناحية أخرى فإن قصص الأطفال تتحدث عادة عن ثلاثة أجيال مختلفة: الأباء والأبناء والحفدة، وتحكي عن الحب الذي ينمو بين الصغار والذي ينتهي بهم إلى الزواج.

أما قصص «الفابليو» فهي لا تهتم كثيراً بالأجيال المختلفة وتكتفي بتقديم لقطات من الحياة الزوجية.

وهناك فرق من ناحية الموضوع أيضاً، فموضوع قصص الأطفال هو أطفال الدم الملكي والأطفال العاديون معاً، ونجد فيها أيضاً الفلاحين

والصيادين. أما أصحاب الحرف فلا مكان لهم بها، كما أن هذه القصص تتضمن دائرة واسعة من العلاقات الإنسانية بين أناس ذوي مراكز مختلفة مما ربما لا يحدث في واقع الحياة.

أما قصص «الفابليو» فتتسم بالواقعية، كما أنها تموج بأصحاب الحرف المختلفة وشخصياتها من الطبقات الفقيرة في غالب الأمر. وتكاد تكون الفابليو- بواقعيتها الحادة- قريبة من «الفارس»- ذلك اللون الدرامي المغرق في الكاريكاتورية الصارخة.

وتتردد في قصص الأطفال الأشياء الواهية مثل المجوهرات والذهب والرخام. أما قصص الفابليو فلا تعرف هذه الأشياء وأكثر من ذلك، فبينما يحصي أطفال القصص الأولى قطع الذهب لا نجد مع الأخرين سوى أصغر القطع النقدية، وفي الوقت الذي تهتم القصص الأولى بوصف الجمال والقبح الإنساني في الأخرى أي اهتام بالمظهر الخارجي.

وفي قصص الأطفال حد فاصل بين الطيبين والأشرار، وهي تقف عند هذا الحد، أي أنها لا تزج في هذا التمييز بالدراسات السيكولوجية. أما في قصص الفانليو فلكل الرجال ملامحهم المميزة: هناك المجد والكسلان وهناك الفطن والغبي.

وثمة فارق أخلاقي بين قصص الأطفال وقصص الفابليو، فبينما تتسم الأولى بالطهر المطلق نرى الأخرى على النقيض، فهي تبدي ميلا إلى الفسق. وأحياناً المرأة الخاطئة على زوجها الغبي.

وتقودنا المقارنة التي أوردناها بين هذين النوعين من القصص الشعبي

إلى قضية ما تزال موضع اهتمام جميع المهتمين بالأدب الشعبي في أنحاء العالم، ولقد أثار هذه القضية ذلك التساؤل: هل القصة الشعبية أخلاقية أو غير أخلاقية؟ هناك من يقطع بأنها بغير أخلاقية ويدلل على ذلك بعدد من القصص ومنها قصة «الأميرة وراعي الخنازير» التي لم تكن في صورتها الأصلية– أي قبل أن يتناولها أندرسن بالتعديل– سوى قصة نصاب يغتصب أميرة بريئة.

على أن الإجابة عن هذا السؤال سوف تبدو سهلة إذا ما تذكرنا الفرق بين النوعين اللذين ذكرناهما آنفا: أن القصة البدائية أخلاقية، فالبطل والبطلة يمثلان قوى الخير التي تنتصر في النهاية على الأشرار. أما قصص المرحلة الأخرى فهي لا تهتم إلى حد كبير بالاختلافات، وهي تحس بعطف زائد على المتشردين. بل أنها أحياناً ما تقدم المتعة والتسلية عن طريق التندر بفضائل الطبقة المتوسطة والسخرية من أكابر الناس.

ومن المفيد أيضا أن نذكر فرقا آخر بين القصص البدائية وقصص المرحلة الأخرى، وهو أن الأولى أكثر أصالة من الأخيرة، أن قصص الفابليو مثل قطعة الجلد الجميلة المصنعة، أما القصص البدائية فتعتبر حيواناً حياً مازال ملفعاً بفرائه.

وأخيراً لو نظرنا إلى الحياة الفكرية والروحية التي نبتت فيها القصص الشعبية قبل أندرسن نجد أنها كانت متأثرة ثلاثة أفكار:

أولاً: الوجود أعجوبة، والواقع نفسه معجزة.

ثانياً : العناية الآلهية– أو قوى الخير– تقدم عونها للتعسين إذا كانوا طيبين.

وثالثاً: لابد لنا من أن نقاسي كثيراً قبل أن نستطيع قهر القوى المناهضة لنا، ولن يخيب جهد الذي يسمع نداء ضميره ولا يتخلى عن واجبه.

٣- القصص الشعبي والأدب:

لاشك أن القصص الشعبي قد لقى استحسانا جماعيا منذ أقدم العصور من الشعوب التي كانت تسمع فقط دون أن تتاح لها فرص التعلم والقراءة، وبرغم ذلك فلقد واجهت هذه القصص عداء سافرا من الشعوب القارئة. ولعل أسباب قلة ما وصلنا من القصص الشعبي الخاص بالعالم القديم هو أن أناسا مثل أرسطو وشيشرون وغيرهما من الكتاب الذين ملكوا ناصية الفكر في عصرهم كانوا متعاظمين على مثل هذا النوع من الأدب.

ولقد عرف التاريخ محاولتين– قبل ظهور ظهور الطباعة– قام بها بعض الباحثين لتدارك هذا التراث المهمل:

كانت المحاولة الأولى حينما اقترب رهبان البوذية من عالم الأساطير العجيب في الهند ليستفيدوا منه في تطعيم طقوسهم وأدعيتهم بالأمثلة والصور الحية التي تجعل تلك الطقوس أقرب إلى قلوب العامة وأكثر جذبا لهم.

أما المحاولة الأخرى فكانت في أواخر العصور الوسطى حينما قامت الكنيسة المسيحية بالعمل نفسه، وليس من الصعب أن ندرك الحوافز التهذيبية التي دفعت القسس الموقرين إلى اللجوء إلى القصص البدائية دون «الفابليو» لما تتسم به الأخيرة من تهكم وسخرية بغير أخلاقية.

وبعد هذا الاهمال الزائد الذي لقيته القصص الشعبية من الأقدمين لم يتصور أحد أن يوليها عصر النهضة اهتمامه بل أن يضعها في تلك المكانة المشرفة، ولقد استفاد الأدب الشعبي من ظهور المطبعة فسرعان ما تلقفت الأيدي في لهفة الطبعات المتوالية من «ديكامرون» لبوكاتشيو و«الليالي المرحة» لسترابارولا وغيرهما من الأعمال التي تدين بجزء كبير من نجاحها لما استقته من مادة من القصص الشعبية وقصص «الفابليو» التي تظهر في جلاء في كل منها.

ورفض الشعر الفرنسي اكلاسيكي- مثل شعر «بوالو» ودائرته الأدبية- الاعتراف بالقصة الشعبية، ولكن سرعان ما انتصرت في صراعها ضد الكلاسيكية واستعادت مجدها الغابر. ويرجع الفضل في هذا إلى «بيرو» وهو من أول الأبطال الذين ناصروا الحديث على القديم.؟ وتعتبر مجموعته القصصية «الأوزة الأم» أول وأشهر مجموعات القصص الشعبي. وجاءت بعد «بيرو» عدة محاولات لترجمة القصص الشعبي الشرقي- وعلى رأسها ألف ليلة وليلة- إلى الفرنسية وغيرها من اللغات.

ولعل من أهم ما في الأمر أن هذه المحاولات كان لها أثر ملحوظ على أدب القرن الثامن عشر من الدراما إلى الأقصوصة إلى الرواية الطويلة. ونذكر على سبيل المثال «الأيكة» لكريبلون الصغير وبعض أعمال «ديديرو» ثم الهزلية التي كتبها الكاتب الدنماركي «برام» بعنوان «الحالم»، وربما لا يعرف الكثيرون أن «فولتير»- خير كاتب يمثل ذلك العصر- قد تأثر إلى حد كبير بروح الأقاصيص الأسطورية، وأعجب إيما إعجاب بالقصص الشعبية أوروبية كانت أو شرقية. وبدا ذلك الأثر واضحاً في أهم

أعماله: «أساطير وحكايات فلسفية»و «وكانديد أو التفاؤل» و«زاديج أو القدر» وغيرها.

ومما هو جدير بالذكر أن فكرة كتابه «القدر» مبنية على قصة شعبية شرقية أسمها «الملاك والناسك».

واقتفى أثر فولتير عدد كبير من الكتاب، ونستطيع أن نقول: أنه حوالي عام ١٨٠٠ كانت القصة الشعبية قد تحررت من أقمطتها وتحولت إلى فن أدبي له أهميته.

وبظهور الحركة الرومانتيكية في ألمانيا التي كانت بشيراً بالحركة الرومانتيكية في الدنمارك– بلغ الاهتمام بهذا الفن الأدبي الجديد– ذروته. فلم يقنع الكتاب الدنماركيون أو الألمان أمثال «هوفمان» و«أوهلنشليجر» و«أنجمان» بإدخال روح الأقاصيص الشعبية وموضوعاتها في أعمالهم المسرحية، بل لقد طمحوا إلى تجديد شباب القصة الأسطورية ذاتها.

والواقع أن الربع الأول من القرن الماضي كان عصرها الذهبي، فقد استحوذت في تلك الآونة على خيال العالم، وغذته في جراءة بأحلام اليقظة والتأملات الوردية وخصبته في الوقت نفسه برمزية أكثر عمقاً. على أنه برغم كل الجهود التي بذلت لبث حياة جديدة في الأقصوصة الشعبية فات الجميع الاهتمام بأمر في غاية الأهمية.

فقد أهملوا القالب المتماسك المحدود الذي كان موضع احترام القرن الثامن عشر، أهملوه لكي تصبح للكتابأمكانيات التصرف بحرية أكثر في

عالم التخيلات. ونسوا في هذا أن القصص الشعبية القديمة كانت مقيدة إلى درجة كبيرة بنظرة معينة لحياة تختلف تماماً عن الحياة في العهد الجديد للرومانتيكية. لم يدركوا أن تخيلاتهم المضطربة، ورؤاهم الميتافيزيقية تختلف في الواقع عن الإيمان البكر الذي تتسم به القصة الشعبية.

وبرغم أن تلك الفترة كانت تعتبر العصر الذهبي للقصة الشعبية فإننا لا نكاد نجد إنتاجاً يستحق الاهتمام سوى ذينك الكتابين اللذين قرأتهما أوروبا كلها– وما زالت– وهما: القصص الأسطورية لهوفمان ومجموعة القصص الشعبية لأخوان جريم.

والسبب في شموخ هذين العملين وسط كل الإنتاج الذي ظهر في تلك الفترة هو أن مؤلفيهما هما الوحيدان اللذان أدركا أن ثمة رابطة بين الأساس والشكل في القصص الشعبية وأن هذه الرابطة لا يمكن تحطيمها.

ولقد وجه «هوفمان» القصة الشعبية وجهة جديدة بتحويلها إلى فن جديد وصبها في قالب القصة الخيالية، وكان ذلك في غاية الأهمية لأندرسن. أما القصص التي جمعها أخوان جريم فقد كانت في متناول أبسط الأفهام والمدارك، كما أنها تتميز باحتفاظها بجزء كبير من طابعها الأصلي. لقد بذل الأخوان كل جهد صادق وأمين لأبراز المضمون الأصلي في لغة تكاد تكون مطابقة للغة الكلام. لقد حاولوا– باختصار– أن يبعثوا من جديد القصة الشعبية بكل ما بها من فطرة وأصالة.

وهنا تسلم الشعلة هانز كريستيان أندرسن.

ثانياً : قصص أندرسن الأسطورية

١- الفكرة:

كان على أندرسن أن يأخذ على عاتقه استمرار القصة الشعبية، ولكن لكي يفعل ذلك استلزم الأمر تدخلا شخصياً من جانبه. وقبل أن ينجح في إعادة الشباب إلى فكرة القصة الشعبية ومضموها وقالبها كان لابد من مروره بعملية من التطور الذاتي، الأمر الذي كان شاقا عليه للغاية. إذ كان من الضروري أن يصبح ذلك واقعا ملموسا له، وإلا أصبحت قصص أندرسن واحدة من المجموعات المتعددة التي ظهرت في القرن التاسع عشر، لا مكانة لها سوى أها تحتل بضعة سطور في كتب التاريخ الأدبي.

ويدين أندرسن بتجديده للفكرة في القصة الشعبية إلى «أورستد» أكبر الباحثين الدنماركيين في ذلك العهد، ففي أحد أعماله المبكرة اتخذ أندرسن فكرة ما– دون أن يقتنع بها– وهي كون الإنسان مرتبطا بالطبيعة ومقرونا بإدارتها. وترجع هذه الفكرة إلى العصور الوسطى ولكنها كانت مشكلة قائمة في الفترة الرومانتيكية. وكان العمل الذي ضمنه أندرسن هذه الفكرة هي القصيدة الدرامية المسماه «أجنيت والجني» وتضايق أورستد الذي كان يعتبر أول من تنبه لنبوغ الفتى، تضايق أن يلجأ أندرسن إلى مثل هذه الأفكار التي انتهكها الرومانتيكيون، فأخذ على عاتقه تعليم أندرسن أفكاره التي ضمنها كتابه «روح الطبيعة» وهو حصيلة عمره الطويل وقراءاته الكثيرة في الروحانيات والعقائد.

والفكرة الرئيسية التي تضمنها كتاب «أورستد» هذا بسيطة وعظيمة في الوقت نفسه: فهو يقارن بين الروح والطبيعة، بين الواقع والمعجزة التي تعتقد في هذا العصر مجرد وهم، أنه يقول: إن قوانين الطبيعة ما هي إلا أفكار الله، وأن الطبيعة هي الروح، والواقع نفسه معجزة. وتلك هي الفكرة التي أخذها أندرسن، وهو يوردها بطريقته الخاصة فيقول، وكثيراً ما كان يردد ذلك القول: «أن الواقع أجمل قصة أسطورية»، وبهذا الاعتقاد المبني على الاقتناع التام وضع أندرسن قدمه على أول الطريق الذي أنعش به القصة الأسطورية وبث فيها روحاً جديدة، كان الواقع في نظره أكثر روعة وجمالاً من ثمرات الخيال.

إن الفكرة في أقاصيص أندرسن تستمد قوتها من الملاحظات الصغيرة الدقيقة لهذا العالم الملموس، ومن أحداث الحياة التي قد تبدو غير هامة، ولكن نفس الشاعر كجهاز الرادار أو كالفيلم الحساس تنعكس عليه أصغر الهنات. وعندما يلتقط الفنان إحدى هذه اللفتات الصغيرة التي تمر بحياته، ويدخلها معمل أفكاره باحثاً في أسبابها ونتائجها تكون النتيجة خروجه بأقصوصة جديدة رائعة.

لقد حاول أندرسن أن يستقل بنفسه عن مضمون القصة الشعبية القديمة ومن ثم فإننا نجده قد استعمل الحذر والحكمة في طرق الناحية الأسطورية وخوارق الطبيعة. وفي قصته «الصديق الغائب» و«الأوزات البرية»، نجد آثاراً من الرمزية السحرية التي كانت موضع اهتمام القصاصين القدامى، ففي القصة الأخيرة نجد أن «جون» كانت لديه ثلاث ريشات من ريش الأوز، وزجاجة صغيرة بها بضع قطرات من سائل سحري. وقبل

أن تدخل الأميرة للاستحمام يكون جون قد ألقى بالريشات والسائل السحري في الماء الذي تستحم منه، وما إن تضع الأميرة الماء على جسدها حتى تنقلب في الحال إلى «ملاك».. وما إلى ذلك من المشاهد الخيالية التي كانت تمتليء بها القصص في ذلك الوقت.

ولكي نعرف إلى أي مدى تطور أندرسن بأفكار القصة الأسطورية نجد أن قصة «الأوزات البرية» التي كتبها في بدء حياته القصصية على طرف النقيض من قصصه الأخيرة، ولنذكر على سبيل المثال «قصة أم»، إذا كان الليل، والبحيرة، والشجيرة الشائكة. وكلها استطاعت النطق في القصة، وإذا كانت هذه تشخيصات لا نعرفها في حياة الواقع فإن حب الأم الذي يصوره أندرسن لنا هو من أعظم القوى الطبيعية وأعجبها لأولئك الذين يعرفونه. أو فلننظر إلى نوع النهايات التي كان يميل إليها أندرسن مثل نهاية «بائعة الكبريت الصغيرة» حيث نرى حركة الموت يسبقها احساس بالنشوة والراحة يسمو بنا فوق العذاب الدنيوي.

ولكن أندرسن لم يجمد عند الأفكار التي لقنه إياها أورستد، بل لقد أضاف إليها شيئاً جديداً وهو أن العناية الالهية تحم الصفوة التي تختارها، وتمنحها كل عون ومساعدة. ولقد كان لهذه الفكرة أصل في القصص الشعبية القديمة، غير أن ثمة اختلافا كبيرا بين معالجة أندرسن لهذه الفكرة ومعالجة أسلافه، فلقد كان إيمان أندرسن عميقا بالعناية الألهية كما أسلفنا، ومن ناحية أخرى فإن المدرسة الرومانتيكية القديمة كانت تعتقد أن العبقرية المختارة يأتيها العون عن طريق المصادفة،أما أبطال أندرسن فإنهم يستحقون النجاح الذي يصلون إليه.

لقد كان أندرسن يحسب أنه من الصفوة المختارة، وأن في استطاعته، مثل أورستد، أن يتصفح كتاب الطبيعة الضخم. واننا لنجد هذا الإدراك بأنه مبعوث للقيام برسالة ما في إحدى قصصه الأولى «خطوات الحظ»: لم يكن أندرسن بالغطرسة التي تجعله لا يعتقد أن كل إنسان على وجه الأرض مكلف واجبا نحو إنسانيته، سواء هذا الواحب كبيرا أو صغيرا.

وأضاف أندرسن على ذلك فكرة ثالثة، وهي ذات أهمية كبيرة لنا لأنها تساعدنا على تحديد «الحركة» في قصصه. ومؤدى هذه الفكرة أن «الحياة محفوفة بالصعاب».

عند بداية القرن التاسع عشر كانت القصص الأسطورية الجديدة في الأدب الألماني والدنماركي مملوءة بالبهرج الكاذب والألوان البراقة التي توحي بأن الحياة ليست سوى لعبة تافهة.

وإذا بأندرسن يصرخ في كل صفحة من صفحات قصصه مناديا بفلسفته الواقعية: «لابد لنا من اجتياز كثير من العقبات الصعبة» ولولا هذه الصرخة المدوية ما أصبح أندرسن الباعث للقصة الشعبية.

إن الرجل الذي خلف هذه الصور الحية الحديثة عاش حياة شجاعة شامخة، حياة من العمل النابع من الطموح، والتسليم الذي يبعثه الإيمان، ولقد كان يتمتع بصراحة فائقة منحتنا صورة أمينة لهذه الحياة، صورة مشربة بالواقعية الحادة.

٢- المضمون:

بعد هذا العرض للأفكار التي تطرق إليها أندرسن في أقاصيصه يأتي

دور المضمون وأعني بالمضمون هنا عناصر التجربة الشخصية التي تتضمنها قصصه.

لقد استغرق الأمر بأندرسن وقتاً طويلاً قبل أن يتعلم الكتابة في هذا اللون الدقيق الذي يحتاج إلى عناية فائقة، فقد كانت ملكاته في بداية الشوط جافة ومهوشة، وكل ما كان في قدوره إنما هو إنتاج أعمال غير مترابطة ولا منسقة، تعوزها الفكرة والقالب أيضا.

ولم تكن رواياته الطويلة، برغم ما بها من امتاع، سوى مجموعة من الخواطر المتراكمة في غير ما بناء متماسك أو قالب منظم. وكان الموضوع السائد في كتبه الأولى هو الكفاح من أجل الحياة.

ويعتبر كتاب «ضارب العود» مثالا لذلك، فهو يصف الإنسان الذي ناءت عليه أحداث الزمان. وهو كتاب بلا فكرة. كل ما أراد أن يقوله هو أنه يجب أن تذلل العقبات المادية التي تواجه العبقريات التعسة، لأنه مشروع إنساني كان أولى أن يكتب في مقال لا في رواية. ولا يمنع ذلك من كون الكتاب مليئاً بالحياة والواقعية.

وإننا لندرك بوضوح هذا التكديس للخواطر والثروات الوصفية للأشياء التي رآها أو خبرها إذا ما ألقينا نظرة على بضع فقرات ثم قصد حياته: أنظر إلى بيته: أمه امرأة قوية الشخصية ذات عزيمة من حديد وأحساسات متفجرة، تؤمن بكل شيء تسمعه من القسيس أو ساحر القرية على السواء. وكان على ابنها أن يؤمن بعقيدتها أو عقيدة أبيه الرجل المنطقي وناقد الأنجيل، كما أصبح الشاعر نفسه كذلك تماما فيما بعد حتى

الممات. وكان هذا الوالد أكثر غرابة وشذوذاً من ذلك، فقد كان اسكافيا يعمل بنفسه دون مشاركة أحد وكان عبقرية ريفية له يدان فنانتان يجيد بهما صنع كثير من الأشياء الدقيقة. وكانت حياته تسيطر عليها الأوهام، ولقد تطوع في الجيش ليحارب تحت امرة نابليون، ولكنه سرعان ما عاد من الحرب محطم النفس والروح والبدن، وكان جد أندرسن مجنوناً لا يكف صبيان القرية عن تعقبه والجري وراءه.. الخ.

وإذا أضفنا إلى كل ذلك ما قاساه من أجل أن يكتشف اتجاه مواهبه، ولكي يجعلها موضع احترام النقاد الأدبية في عهده، فسوف يكون مفهوماً أنه لا يوجد كتاب له أساس واقعي أقوى من قصص أندرسن الأسطورية. ولكن بدون ذلك فإن هذه القصص الأسطورية لم تكن لتصير على ما هي عليه. ولو وقف أندرسن عند تقليد الوجهة الخارجية للقصص الأسطورية القديمة ما كان لينتج شيئاً مما نراه الآن، صورة كبيرة للحياة بكل ما فيها من خشونة وصدق.

ولقد كان أندرسن أخصب شعراء الدنمارك فيما يختص بعالم الواقع. ففضلاً عن سعة أفقه سافر إلى ثلاث قارات، كما أن الحياة في الخارج أرهفت إدراكه بالطبيعة، وأصبح مثل «بوليسيس» خبيراً بعادات عدد كبير من الشعوب. وأخيراً فقد كان أكثر خبرة وعلما بعادات بلاده وتقاليدها.

وإذا أجرينا قطاعاً رأسياً في أعماله نجد أنها حافلة بفقرات وصفية لجميع المواقف في الحياة. ولا يدانيه سوى (بلزاك) في وصف هذا العدد الضخم من فئات الشعب على مختلف المستويات: فهذا أحد العبيد رهين الأصفاد في زنزانته، وهذه فتاة تكاد تموت من البرد في الشارع، وهذا هو

الحارس الليلي، وهذا قسيس، وذلك فنان، وتلك المجتمعات النبيلة ومجتمعات الطبقات المتوسطة.. ألخ.

أما القطاع الأفقي فيكشف لنا كيف وصف أندرسن كل أجزاء الدنمارك في عهده، فإننا نجد جزيرة (فينين) في قصة «الصديق الغائب» وكوبنهاجن في «خطوات المجد» وزيلاندة في القصص التي كتبها ابان إقامته في بيوت الأعيان مثل «العائلة السعيدة».. إلخ.

ويمكننا القول بأن أحدا من معاصريه لم يكشف عن احساس بجمال الطبيعة مثلما كشف أندرسن. وقد كانت كتابات شبابه غير حافلة بما يبين العلاقة الوثيقة بين الشاعر والطبيعة، ولكن بعد رحلته الأولى إلى إيطاليا انبثق بين جنبيه أحساس طاغ بجمال كل ما تقع عليه عيناه في الداخل والخارج كان الشاعر يدرك سر كل زهرة– سواء كانت برعما صغيرا أو وردة متفتحة تبهر بجمالها الأعين والقلوب– إن الفتاة الصغيرة في «ملكة الثلج» تكشف للأزهار عن مكنون قلبها.

ولقد كان أندرسن على معرفة تامة بمباهج كل فصل من فصول السنة على حدة، وكشف لنا عن هذه المباهج بإدراك الفنان المرهف الذي لا تفوته فراشة هائمة أو جبل كبير توجته الثلوج.

٣- القالب:

حتى أولئك الذين لا يهتمون بأساس العمل الشعري وأفكاره قدر أهتمامه بقالبه الفني– تقدم لهم قصص أندرسن قدراً غير قليل من المتعة، فلقد كان أندرسن منذ صباه يغذي ملكاته الشعرية من مدرستين شعريتين

كانتا تقتسمان الدنمارك في ذلك العهد. فتعلم من الشاعر «أوهلنشليجر» كيف يستعمل عينيه. وكيف يستفيد من هذه الهبة الربانية التي جعلت في مقدوره أن يرى ويحس كل شيء، ويرجع الكمال الحسي الذي أتسمت به أعمال أندرسن النثرية في الأصل إلى الأسلوب الشعري لمنظومات «أوهلينشليجر».

أما مدرسه «هايبرج» فقد أخذ منها أندرسن الكثير حتى لقد اعتبره البعض من تلاميذها المخلصين. وأن تفوقه في إبراز الصبغة المحلية في قصصه. وفي رشاقته عبارته، وفي ومضات المرح التي تنتشر في كتابته من آن لآخر، كل ذلك يعود إلى ما أخذه عن هايبرج. ولكن أهم ما يدين به أندرسن لهايبرج هو إيمانه الذي لم يتطرق إليه شك بأن جميع الألوان الأدبية، حتى النثر الذي كان يحتل مكانة متأخرة في تلك الحقبة من التاريخ الأدبي– يمكن أن تكون طريقاً إلى الشهرة والخلود.

وفي نظري أن أندرسن لو لم يتعلم غير هذه النقطة لكفاه ذلك، فلا شك أنها هي التي كانت تمد في عمر آماله وعزيمته حينما كان ينتقل من لون أدبي إلى آخر دون أن يحقق ما كان يصبو إليه. وهي التي جعلته يموت قرير العين وهو يعلم أن العالم لا يعترف به– وهو الذي كتب في كل شيء– إلا ككاتب قصص أسطورية.

إن أندرسن لو لم يرسخ في قلبه هذا الإيمان الذي تلقاه من «هايبرج» لمات منتحراً بعد أن يلقي بجميع أعماله في النيران! وأي خسارة كانت تلحق بالإنسانية لو حدث ذلك؟

لقد جرب أندرسن حظه مع الرواية الطويلة ومع المسرحية، ومع أن ما خلفه فيهما قد آثار بعض الأهتمام فإنه لم يكن اهتماما باقيا. ويرجع ذلك إلى أن هذين اللونين من الكتابة بما يتطلبانه من استعداد فني ضخم- كانا فوق مستوى معلوماته ومداركه البسيطة- ولقد كتب بعض القصائد الطيبة، ولكن النظم لم يسلم له القياد على أية حال.

على أننا إذا تتبعنا الخطوات التي بذلها أندرسن في النثر والشعر منذ أول المطاف، فإنه سيكون في مقدورنا أن نلحظ في غير صعوبة أن ثمة عدة أماكن أثبتت فيها مواهبه وجوداً لا يمكن تجاهله، فكثيراً ما تصادفنا في أعماله مقطوعات نثرية تتكشف فيها جوانب خفية من الحياة تبهر الأعين، كما لو أن ضوءاً ساطعاً قد سلط عليها على حين فجأة. ولقد نشر مجموعة من الصور النثرية هي بمثابة الأجنة لأعمال فنية في كتاب أسماه «المصور بلا صور»، وتبدو طريقته الشعرية في هذا الكتاب أكثر مما تبدو في أي عمل آخر.

وتعهد أندرسن البذرة الشعرية التي تضمنها هذا العمل المبكر حتى غدت كيان، وهو- وإن كان بسيطاً- أستطاع به أن يصل إلى خلق القصة الأسطورية.

ومن الواضح أن أقاصيصه يمكن تقسيمها إلى قائمتين:

في الأقاصيص التي تنتمي إلى القائمة الأولى لم يتجاوز أندرسن كونه راويا – من جديد وبلغة تقارب لغة العامة- لأقاصيص الأولين. ولنذكر من هذه القصص «القداحة» و«الأميرة الحق» و«راعي الخنازير» ثم «ملابس

الأمبراطور الجديدة»- وهذه القصة الأخيرة مستقاة من أصل أسباني. ولابد أن نذكر أن الشاعر قد جعل من قصص الفابليو والقصص البدائية مصادر له. ولقد أبقى على الملامح الجوهرية في تلك القصص مثل ضروب الخداع القديمة، بل إنه بعث أسلوب التجريد والتبسيط المتناهي الذي كانت تتسم به. ومما هو جدير بالذكر أيضا أن أندرسن قبل أن يعالج القصة الأسطورية كان قد أخذ يكتب قصصا مسلية منظومة مثل «بائعة اللبن والجرة», التي كتبها على طريقة القرن الثامن عشر مقلدا (ويسيل) و(لافونتين) الكاتبين اللذين بعثا قصص «الفابليو» من جديد.

أما القائمة الأخرى من قصص أندرسن فهي تتضمن قصصه الجادة، مثل: «عروس البحر الصغيرة» و«الصديق الراحل» و«ملكة الثلج» و«الحذاء الأحمر» و«قصة أم» ألخ..

ولقد مارس الشاعر هنا كل حرية مع النماذج التي راقت له، فلم يكن يعمل إلا مدفوعا بخياله الخاص. وبطريقته الخاصة: مزج المرح بالعاطفة، والعطف بالسخرية، والتعقل بالاندفاع.

ومعنى هذا أن أندرسن عندما كان يتناول «الفابليو»- التي تستلزم ممارسة الفكاهة والنقد- فإنه لا يفرض تغييرات بعيدة الغور على هذا النوع من التراث. أما إذا كان يعالج مادة من مواد القصص الأولية، فإنه يقف إزاءها موقفاً مستقلاً للغاية.. أو بمعنى آخر كان أندرسن يبعث «الفابليو» ويبث فيها الروح من جديد، ولكنه طور القصص الأسطورية البدائية.

ولقد وقف أندرسن هذا الموقف بعد كثير من التفكير، ولكن لابد من

إضافة حافز آخر، من الأهمية بمكان، يلقي الضوء على هذه العملية الجمالية. فلقد كان يطمح إلى خلق نوع من الأدب الشعبي العالمي– وفي القالب القديم نفسه– يتشرب كل الألوان الأدبية الأخرى.

وكان من عادته أن يناقش القضايا الأدبية والفنية في رواياته، وفي إحداها ذكر رأيه عن أدب المستقبل. ومؤدى هذا الرأي أن أدب المستقبل لا بد أن يكون «موجزا، وجليا، وغنيا». وكثيرا ما كان يردد هذه الألفاظ في خطاباته. ولقد كان يطمح إلى كتابة قصصه طبقا لهذا الرأي.

على أن أندرسن لم يكتف بالأقاصيص يبث فيها الروح أو يطورها، بل إنه تعداها إلى الألوان الأدبية الأخرى كي يصب موضوعاتها من جديد في قصص أسطورية. وهكذا فإن في مقدورنا أن نستشف الملحمة الهزلية في قصة: «الجندي الصفيح الثابت» والهزلية الأخلاقية في قصة «الراعية وكناس المدخنة». وبهذه الطريقة يمكن أن نقول أن أعماله قد أصبحت نوعاً من الأدب العالمي المتنقل.

وقد أصبحت قصصه بهذا المعني بالنسبة للقرن التاسع عشر وربما بالنسبة التاسع عشر وربما بالنسبة للعشرين أيضا– كما كانت روايات فولتير بالنسبة للقرن الثامن عشر– وتشبه أكثر أقاصيصه عمقاً روايات فولتير، فهي أقاصيص قصيرة تتضمن فكرة كبيرة. وفي مقدورنا أن نطلق على هذه الأقاصيص عناوين مزدوجة كما كان يفعل فولتير في «زاديج أو القدر» و«كانديد أو التفاؤل». فيمكننا أن نقول بالنسبة لأندرسن: «قصة أم أو كتاب القدر المغلق» و«بائعة الكبريت الصغيرة أو

الإحسان». ولكن ربما كانت هذه العناوين المزدوجة أقل ملاءمة بالنسبة لأقاصيص أندرسنن لأن الفكرة فيها واضحة برغم أن الشاعر لم يكن يدق على وترها دقا مباشراً.

الفصل الثالث

قصص أندرسن شرائح من حياته

مقدمة:

يتضمن هذا الفصل عدداً من أقاصيص هانز كرستيان أندرسن الأسطورية. وأنا لم أقصد هنا أن أضيف إلى الكتاب بضع صفحات لا طائل وراءها، أو إلى أن تكون هذه الصفحات مهداة إلى طفلك، برغم أنها ستكون ذات متعة فائقة له، وإنما كان همي الأول في الواقع هو أن أضرب بعض الأمثلة لما سبق أن رددته من أن حياة أندرسن كانت الحقل الأول الذي ضرب فيه بقلمه حينما اتجه بقصصه نحو الواقعية.

وهذه هي نقطة العبقرية لدى شاعرنا الكبير، فأندرسن أستطاع أن يزوج الواقع بالخيال، ويخرج منهما نتاجا هو مزيج رائع من الأثنين. أن أندرسن لم يكتف بقراءة الأساطير التي تداولها الناس في أيامه، وروايتها من جديد، بل أضاف إلى ذلك «أساطير» أخرى أستقاها من «واقع» حياته.

لقد وضع أندرسن حياته على المشرحة وأعمل فيها مبضعه الحساس، فجاءت كل شريحة عملا ينبض بالتجربة والمعاناة الحق.

وسأورد قبل كل أقصوصة التجربة الضاربة في أعماق حياته والتي أستلهم منها أندرسن تلك الأقصوصة. إن كل تجربة من تلك التجارب

بمثابة البذرة التي ألقى بها القدر في تربة حياته فتعهدها أندرسن– الخلاق– وسقاها من روحه وفنه فخرجت شجرة ظليلة وأرفة مثمرة.

فإلى روعة التجربة، وعظمة الخلق.. إلى السر الذي ربط أندرسن بالخلود.

الشريحة الأولى

«... حان يوم التعميد الديني لسن البلوغ، وأقبلت أمه وجدته تسيران في تردد وحياء داخل الكاتدرائية الكبيرة لتسمع هانز وهو يجيب عن أسئلة المعمدان ويؤكد بإجابته استمساكه بأهداب الدين. وكان يرتدي بذلة أبيه البنية– بعد أن أعدت لتناسبه– وقميصا أبيض ناصعا، وكانت تلك أول مرة في حياته يرتدي فيها مثل هذا القميص وحذاء جديداً. وكان أخشى ما يخشاه ألا يرى كل من في الكاتدرائية حذاءه الجديد، ومن ثم حرص على رفع «بنطلونه» ليبدو الحذاء بأكمله واضحاً لكل ذي عينين وقد سره وملأ نفسه بالفخر صرير حذائه هذا الجديد وهو يسير، فلا شك أن هذا الصرير سيعلن للجميع عن جدة الحذاء. وفجأة أحس بالفزع وهو يتبين أنه في هذه اللحظات الدينية الحاسمة يفكر في أمر حذائه أكثر مما يفكر في أمر دينه.. إنه يعرف أن هذا أمر فظيع... وأنه ليستغفر الله ويبتهل إليه في حماس، ولكنه وجد نفسه، مع هذا، لا يزال منعما التفكير في حذائه ذاك الجديد..».

***

الحذاء الأحمر

كان هناك فتاة صغيرة تدعى «كارين» لطيفة جدا ورقيقة، لكنها كانت فقيرة رقيقة الحال، فكانت تمشي في الصيف دائما عارية القدمين، وتلبس في الشتاء حذاء خشبياً كبيراً يحمر منه كعباها الصغيران ويحتقنان وكانت تسكن في القرية صانعة الأحذية، فجلست ذات يوم وصنعت من بضع خرق من القماش الأحمر زوجاً صغيراً من الأحذية. وكان الحذاء قبيح المنظر ولكنه جاء ملاءماً للفتاة الصغيرة فأعطتها إياه.

وقد أعطيت «كارين» الحذاء الأحمر في اليوم الذي شيعت فيه جنازة أمها، فلم يكن ذلك يناسب الحداد، لكنها لم تكن تملك غيره فمشت به عارية الساقين وراء عربة الموتى.

ومرت في تلك اللحظة مركبة كبيرة عتيقة تحمل سيدة ضخمة كبيرة السن؛ نظرت إلى الفتاة الصغيرة نظرة أشفاق وقالت للقس:

«أعطني الفتاة الصغيرة لأعني بأمرها».

وظنت «كارين» أن الحذاء الأحمر هو الذي حببها إلى السيدة العجوز، لكن السيدة العجوز قالت: إن الحذاء مرعب. وأمرت بحرقه؛ والبست كارين الملابس الأنيقة؛ وعلمت القراءة والأشغال، وقال لها الناس: أنها لطيفة؛ لكن المرأة قالت لها: «إنك لست لطيفة فحسب، إنك جميلة حقا».

وحدث ذات يوم أن الملكة كانت تزور تلك البلاد ومعها ابنتها الأميرة، فتجمهر الناس ومن بينهم «كارين» أمام القصر ووقفت الأميرة

بجوار النافذة في ثوب أبيض لكي يراها الجميع، ولم تكن تجر ذيلا أو تحمل تاجا ذهبيا؛ لكنها كانت تلبس حذاء لطيفا أحمر من جلد الماعز الرقيق، ولكنه ألطف كثيراً من حذاء كارين الصغيرة، لم يكن في الدنيا بأسرها ما يمكن أن يقارن بهذا الحذاء الأحمر!

وكانت كارين في ذلك الوقت قد بلغت السن التي تسمح لها بتلقي التعميد المقدس، فأوصى لها بثوب جديد وحذاء جديد، وقاس صانع الأحذية بالمدينة قدمها الصغيرة. وكانت الأحذية اللطيفة اللامعة معروضة في جوانب الحانوت في خزائن كبيرة من الزجاج، لكن السيدة العجوز كانت ضعيفة البصر؛ فلم تجد ما وجدت كارين من سرور وهي تتطلع إلى الأحذية. وكان بين الأحذية زوج أحمر يشبه الذي تلبسه الأميرة كل الشبه، وكان زاهياً، وقال صانع الأحذية: إنه كان قد صنع خصيصاً لفتاة من إحدى العائلات الكبيرة لكنه لم يلائمها.

وقالت السيدة العجوز: «إنه من جلد لماع فأنظري كيف يلمع؟» فصاحت كارين: «أجل أنه يلمع بشكل بديع». ولما كان الحذاء قد ناسبها فقد اشترته العجوز لها.. لكن السيدة العجوز لم تكن تدرك أنه أحمر» ولو أدركت ذلك ما اشترته، لأنها لم تكن تطيق أن تذهب كارين إلى التعميد المقدس في حذاء أحمر. ولكن كارين لبسته وذهبت به. فكان الكل ينظرون إليها، وخيل لها وهي تمشي أن كل شيء حتى التماثيل القديمة المنحوتة وهي واقفة في أثوابها الفضفاضة السوداء تصوب أنظارها إلى حذائها الأحمر. وكانت كارين لا تفكر في غير هذا الحذاء حين وضع الأسقف يده فوق رأسها، وحين أخذ يتكلم عن التعميد المقدس وكان

الناي يبعث نغماته العميقة الرهيبة وأصوات الأطفال الحلوة تختلط بأصوات أفراد جماعة المنشدين، لكن كارين كانت لا تزال تفكر في حذائها الأحمر، ولا تفكر في شيء غير حذائها الأحمر.

وفي عصر ذلك اليوم حين أخبرت السيدة العجوز بأن كارين كانت تلبس حذاء أحمر، اغتاظت غيظاً شديداً، وأبلغت كارين أن الحذاء لا يناسبها مطلقا، وأنه يجب عليها بعد الآن- كلما ذهبت إلى الكنيسة- أن تلبس حذاء أسود مهما كان قديما.

وفي يوم الأحد التالي نظرت كارين إلى حذائها الأحمر أولا ثم حولت بصرها إلى الحذاء الأسود، ثم نقلته ثانية إلى الأحمر ولبسته.

وكان الجو مشمساً بديعاً، ومضت كارين والسيدة العجوز إلى الكنيسة بين حقول القمح في طريق كثير الغبار.

ووقف على باب الكنيسة جندي عجوز وهو متكيء على عكازين، له لحية طويلة، لكنها مضبوغة بصبغة حمراء، وانحني حتى لامس الأرض، وسأل السيدة العجوز: هل تسمح له بإزالة الغبار عن حذائها ومدت كارين قدمها الصغيرة أيضاً، فقال الجندي العجوز: ما ألطف حذاء الرقص هذا! احذري أن يفلت من قدميك حين ترقصين، ومر بيديه فوق الحذاء.

ونقدت السيدة الجندي العجوز نصف بنس وتوجهت مع كارين إلى الكنيسة.

وتأمل كل واحد حذاء كارين الأحمر حتى كأنما صوبت التماثيل المنحوتة أيضاً نظرها إليه! وعندما ركعت كارين أمام الهيكل كان الحذاء

الأحمر لا يزال ماثلاً أمام عينيها، فكانت تفكر فيه ولا تفكر في غيره، ونسيت أن تشترك في النشيد وغفلت عن ترديد الصلاة. وأخيراً خرج الناس كلهم، وركبت السيدة العجوز مركبتها، وكانت كارين تهم بأن ترفع قدمها حين صاح الجندي العجوز الواقف بالباب يقول: أنظروا ما ألطف حذاء الرقص هذا!

وما إن فرغ الرجل من كلامه حتى أحست كارين أنه يجب أن ترقص بضع خطوات، وما إن بدأت حتى اندفعت قدماها تتحركان كأنما للحذاء سلطان عليهما، ورقصت حول المقبرة، ولم تستطع أن تنكف عن الرقص فاضطر الحوذي إلى الجري وراءها وأمسك بها ورفعها إلى المركبة. لكن قدميها كانتا لا تزالان ترقصان حتى أنها ضربت بهما السيدة العجوز ضربة قاسية، وأخيراً خلع الحذاء فسكنت القدمان عن الحركة.

ثم وضع الحذاء في خزانة، ولكن كارين لم تستطع مقاومة نفسها في الذهاب لرؤيته حينا بعد آخر.

ومرضت السيدة العجوز ولازمت فراشها. وقال الطبيب: إنها لن تعيش طويلاً، وكانت بحاجة إلى من يعنى بتمريضها، ومن ذا الذي يمرضها ويقوم على خدمتها الدائمة غير كارين؟

ولكن حفلة رقص عظيمة كانت ستقام في المدينة، وكانت كارين من المدعوات، فنظرت إلى السيدة العجوز التي تحتضر، ونظرت إلى الحذاء الأحمر فلبسته ثم ذهبت إلى المرقص وأخذت ترقص.

لكنها حين أرادت أن تتحرك نحو اليمين حملها الحذاء يساراً.. وحين

أخذت ترقص في القاعة إلى الأمام أرقصها الحذاء إلى الخلف وأنزلها على السلم رقصاً، ودفعها إلى الشوارع، وخرج بها من أبواب المدينة، ومضت ترقص ولم تستطع الكف عن الرقص حتى بلغت الغابة المظلمة.

ورأت فجأة ضوءاً بين الأشجار فظنت أنه وجه القمر يسطع من خلال ضباب الليل بنور أحمر، ولكنه لم يكن وجه القمر بل كان وجه الجندي العجوز صاحب اللحية الشقراء، كان يجلس هناك ويومئ برأسه ويردد:

– أنظروا ما ألطف هذا من حذاء للرقص.

فانزعجت انزعاجاً شديداً، وحاولت أن تلقي عنها حذاءها الأحمر لكنها لم تستطع فكه، بل إنها مزقت جوربها ولم تستطع التخلص من حذائها، وكأنه قد ثبت على قدميها. ومضت ترقص على الرغم منها في الحقل والمرعى، في المطر وتحت أشعة الشمس، بالليل والنهار.

نعم كانت ترقص بالليل! وكان الرقص فيه مروعا! فرقصت في المقبرة الموحشة، لكن الأموات لم يرقصوا بل كانوا يستريحون وكانت تتنمى لو جلست فوق قبر الرجل الفقير، لكنها لم يقدر لها أن تحظى بالراحة لحظة واحدة.

ومرت وهي ترقص بباب الكنيسة المفتوحة فرأت هناك (ملاكا) في ثياب بيضاء له جناحان يصلان من كتفيه إلى الأرض، وكانت على وجهه إمارات الجد والقسوة، وفي يده سيف عريض يلمع.

قال: سترقصين، فأرقصي في حذائك الأحمر حتى يصيبك

«الشحوب، وتبرد أعضاؤك.. وينكمش جلدك.. ويتقلص كجلد الهيكل العظمي! سوف ترقصين من باب إلى باب، وحيث أطفال مغرورون ستدقين الباب ويخافوا منك، سترقصين، فأمضي في رقصك».

فصاحت كارين: الرحمة.. لكنها لم تسمع جواب (الملاك) لأن الحذاء حملها من الباب إلى الحقول ثم إلى الطرق، وداخل الأزقة.

وفي ذات صباح مرت بباب وهي ترقص وكانت تعرفه جيداً فسمعت الأناشيد في داخله، وخرج نعش تعلوه الأزهار.

فأدركت كارين أن السيدة العجوز الطيبة قد ماتت، فأحست أنها أصبحت منبوذة من الناس أجمعين، ملعونة من (ملاك) الرحمة.

واستمرت ترقص حتى في الليل المظلم، وحملها الحذاء فوق الأشواك حتى تمزقت أطرافها وسالت منها الدماء، وذهبت ترقص حتى وصلت إلى منزل منعزل صغير، وكانت تعلم أنه مسكن الجلاد، فنقرت بأصابعها فوق الزجاج، وهي تصيح:«اخرج إلي! اخرج إلي! فإنني لا أستطيع الدخول، إنني أرقص».

فأجابها الجلاد: إنك لا تعرفين من أنا، إني أقطع رءوس الأشرار وفأسي حادة جداً وقاطعة.

قالت كارين: لا تقطع رأسي! لأني حينئذ لا أستطيع العيش والتكفير عن خطيئتي، بل أقطع قدمي وفيها الحذاء الأحمر.

واعترفت له بكل خطيئتها، فقطع الجلاد قدميها وفيهما الحذاء

الأحمر، وحتى بعد هذا ظل الحذاء يرقص بالقدمين الصغيرتين فوق الحقول حتى وصل إلى وسط الغابات.

وصنع لها الجلاد قدمين من الخشب وقطع بعض الأغصان لتكون عكازين لها، وقبلت اليد التي أمسكت بالفأس، ومضت في طريقها فوق الأرض الوعرة.

وقالت كارين لنفسها: الآن قد عانيت بما فيه الكفاية بسبب الحذاء الأحمر، لسوف أذهب إلى الكنيسة ليراني الناس مرة أخرى.

ومضت إلى باب الكنيسة بأسرع ما تستطيع، لكنها حين اقتربت منه وجدت الحذاء الأحمر يرقص أمامها، فأنزعجت وولت هاربة.

وعانت طيلة هذا الأسبوع ألماً بليغا، وبكت بكاء مرا، فلما كان يوم الأحد قالت لنفسها: أظن أنني عانيت هذه المرة كثيرا، ولعلي لا أقل طيبة عن الكثيرين ممن يقفون رافعي الرأس في الكنيسة.

واستجمعت شجاعتها ومضت إلى الكنيسة، لكنها لم تكد تخطو فوق عتبة المقبرة حتى رأت الحذاء الأحمر يرقص ثانية أمامها، فعادت مذعورة وأخذت تندب حظها على خطئها أكثر من أي وقت مضى.

فذهبت عندئذ إلى بيت راعي الكنيسة، ورجته أن يكلفها عملا ما، ووعدته أن تعمل فيه بهمة، وأن تفعل كل ما تستطيع. قالت: ولست راغبة في أجر، بل كل ما أطلبه شقف يؤويني، ومسكن فيه أناس طيبين، وأشفقت عليها زوج الراعي، وأدخلتها في خدمتها.. فحفظت كارين جميلها وجدت في عملها.

وكانت تجلس كل مساء صامتة تصغي إلى الراعي، وهو يقرأ في الكتاب المقدس بصوت عال، وأحبها الأطفال جميعاً لكنها حين كانت تسمعهم يتحدثون عن الثياب والأناقة، وعن جمالهم الذي يشبه جمال الملكة كانت تهز رأسها في أسى وحسرة.

وجاء يوم الأحد من جديد، وذهب آل بيت الراعي جميعاً إلى الكنيسة، وسألوها: ألست ذاهبة أيضاً؟ فتنهدت ونظرت والدموع في عينيها إلى عكازيها.

وعندما انصرف الجميع ذهبت إلى غرفتها الصغيرة- وكانت لا تتسع إلا لسرير ومقعد فقط- وجلست هناك، وبينما هي كذلك حملت الريح إلى غرفتها في الكنيسة أنغام الناس، فرفعت رأسها إلى السماء ودعت الله ودموعها تجري على خديها قائلة: إلهي ساعدني.

ثم سطع نور الشمس سطوعاً يخطف الأبصار، فرأت عجبا؟ رأت أمامها (الملاك) واقفاً بثوبه الأبيض وكان لا يختلف عن (الملاك) الذي رأته في تلك الليلة الكئيبة، لكن يده لم تكن تهز سيفاً كالذي كانت تهزه في المرة السابقة، بل كانت تحمل غصناً جميلاً أخضر مليئاً بالورد.

ولمس (الملاك) السقف بهذا الغصن، فارتفع نحو السماء وظهر في البقعة التي لمسها نجم ذهبي لامع، ولمس الجدران فاتسعت الغرفة ورأت كارين الناس وسمعت أصواتاً كثيرة تنشد.

لقد أتت الكنيسة إلى الفتاة المسكينة في غرفتها الضيقة، أو لعل الغرفة اتسعت حتى أصبحت هي الكنيسة، وجلست الفتاة مع بقية آل

بيت الراعي. وعندما انتهت الأناشيد نظروا إليها وهزوا رءوسهم قائلين: لقد أحسنت صنيعاً بقدومك يا كارين.

فقالت: هذه مغفرة من الله.

وعزف الناي مرة أخرى، وامتزجت أصوات الأطفال بأنغامه امتزاجاً حلوا عذباً، وتدفقت أشعة الشمس الساطعة الدافئة من النوافذ على مقعد كارين، وامتلأ نورا وغبطة وسلاما، وطارت روحها على شعاع من أشعة الشمس إلى الله في السماء حيث لم تكن في انتظارها نظرة عتاب واحدة، أو مجرد كلمة عن الحذاء الأحمر.

***

الشريحة الثانية

.. وذهب في عام ١٨٤٥ إلى برلين، حيث كانت «جين لند» تغني في الدار الملكية للأوبرا، وهو يرجو أن يقضي معها عيد رأس السنة الميلادية.. ولكنها لم ترسل إليه تستدعيه برغم علمها بوصوله. فجلس وحيدا.. يائسا في غرفته بالفندق. وكتب في مذكراته يقول: إنني لا أدري ماذا يدور بذهنها، إنها لا تكاد تشعر بي برغم أني جئت إلى برلين من أجلها.. إننا الآن في ليلة عيد الميلاد.. فما أسعد البيت الذي يجلس فيه الزوج بجانب المدفآة، وشجرة عيد الميلاد مزينة.. والزوجة واقفة وبين ذراعيها أصغر أبنائها.. إنه يمد ذراعيه إلى الأضواء وأن بقية الأولاد فرحون متهللون.

ولكن.. لم يكن ثمة فائدة من الاستغراق في الأوهام والأحلام، فعندما

أرسلت أخيرا تستدعيه وتقضي معه ليلة عيد الميلاد، أدرك أنه ليس ثمة فائدة، فقد كانت تلك أول مرة ينفردان فيها معا، إذ لم تكن وصيفة «جني» معها.. فأضاءت شجرة عيد الميلاد لأندرسن وملأت بغنائها العذب وصوتها الصافي روحه بالسعادة والسلام، ولكنها في الوقت نفسه أبانت له بوضوح أنها لا تستطيع أن تمنحه أكثر من هذا.

***

الكروان

إمبراطور الصين- كما تعلمون جيدا- صيني، وكل المحيطين به صينيون أيضا، وقد وقع ما سأقصة عليكم منذ سنوات عدة.

كان قصر الأمبراطور أعظم قصر في الدنيا، وكان كله مصنوعا من الخزف البديع الغالي الثمن، ولكنه كان في الوقت نفسه هشا.. بمجرد لمسه يتحطم من أوله إلى آخره. وكان في القصر مجموعة من الأزهار رائعة المنظر، وقد ركب في أجمل واحدة من تلك الأزهار ثلاثة أجراس صغيرة من الفضة، وكان كل شخص يمر عليها ويسمع الرنين يضطر إلى الوقوف والألتفات إلى جمالها.

حقاً لقد كان كل شيء في حديقة الامبراطور مرتباً ترتيباً حسناً وكانت الحديقة واسعة جداً لدرجة أن البستاني نفسه لم يكن يعرف آخرها.. وكانت في نهاية الحديقة غابة جميلة ذات أشجار باسقة تشرف على بحر أزرق عميق، تجري فيه السفن إلى جوار الأغصان. وكان يقيم بين الأغصان كروان يغرد تغريداً حلواً يعجب حتى صياد السمك الفقير الذي كان برغم

شغله الكثير يقف ساكناً، ويصغى إليه، وحين يأتي بالليل ليلقي بشباكه، كان يقول: ما أعذب هذا الصوت!.. ثم يشغله عمله فينسى الطائر، حتى إذا عاد الصياد في الليلة التالية وعاد الكروان إلى التغريد كرر قوله: ما أعذب هذا الصوت!

وكان السياح يأتون إلى مدينة الامبراطور من جميع أنحاء الدنيا فيعجبون بالمدينة وبالقصر والحديقة، ولكنهم إذا سمعوا الكروان قالوا جميعا: هذا أحسن شيء هنا. وكانوا إذا عادوا إلى أوطانهم لا يكفون عن الحديث عن الكروان، ويؤلف العلماء منهم الكتب عن المدينة والقصر والحديقة، ولا ينسون الكتابة عن الكروان، فقد كان في نظرهم يفوق كل شيء آخر.. أما الشعراء فكانوا يكتبون أجمل القصائد وأروعها عن الكروان. وكانت هذه الكتب تطوف حول العالم. فوصل أحدها أخيراً إلى يد الأمبراطور، وكان جالساً فوق كرسيه الذهبي، فأخذ يقرأ في الكتاب ويقرأ، ويهز رأسه من حين إلى آخر، فقد أعجبه وصف الكتاب البديع للمدينة والقصر والحديقة. لكن الكروان هو خير ما هنالك جميعا هذا ما قرأه الملك بعد ذلك في الكتاب، فأخذ يسأل: وما هذا الكروان؟ أي كروان هذا؟ إنني لا أعرف كرواناً هنا! أيمكن أن يكون هناك طائر كهذا في أمبراطوريتي.. بل في حديقتي دون أن أسمع بوجوده؟.. الحق أننا نتعلم الكثير من الكتب.

ونادى ياروه على الفور، وكان رجلا مهيباً عظيم القدر لا يجرؤ أحد غيره على مخاطبة الأمبراطور.

قال له الأمبراطور: يقال أن هنا طائراً عجيباً جداً يسمى الكروان ويقال أن تغريده أحلى من أي شيء آخر في مملكتي، فلماذا لم يحدثني أحد عنه مطلقاً؟

فأجاب اليارو: لم أسمع يا سيدي بهذا الطائر قط من قبل، ولم يأت به أحد قط إلى البلاط.

قال الأمبراطور: أريد أن يأتي ويغرد أمامي هذا المساء, هل من المعقول أن تعلم الدنيا كلها ما عندي، وأنا لا أعلمه؟

فرد اليارو: إنني لم أسمع يا سيدي، ولكنني سأبحث عنه حتى أهتدي إليه.

ولكن أين يجده؟ فقد أخذ اليارو يبحث عنه في كل مكان، كان يصعد سلما ويهبط آخر، ويخرج من ردهة إلى ممر دون أن يعثر للكروان على أثر. وعاد إلى الأمبراطور وقال له: لابد أن يكون موضوع هذا الطائر من خيال الكتاب والشعراء، وأرجو ألا يصدق جلالة الأمبراطور كل ما يكتب في الكتب، لأن ما بها مجرد أوهام.

قال الأمبراطور: ولكن الكتاب الذي قرأت فيه عن الكروان قد بعث به إلي امبراطور اليابان العظيم، ذو الجاه والسلطان، ولا يمكن أن يكون ما به كذب وأوهام. أريد أن أسمع البلبل، ويجب أن يكون هنا في مساء اليوم، وإذا لم يأت فسأصدر أوامري بجلد رجال الحاشية جميعاً بعد العشاء.

فانصرف اليارو من أمام الأمبراطور وقد تملكته الحيرة وأخذ يذرع القاعات والردهات ونصف رجال الحاشية يجرون وراءه، فليس منهم من

يريد أن يجلد، وكانوا يسألون كل من يقابلونه عن هذا الكروان العجيب الذي تحدثت الجنية عنه دون أن يعلم أهل البلاط أمره شيئاً.

وأخيراً عثروا على فتاة صغيرة مسكينة في المطبخ فقالت لهم: أجل الكروان! إنني أعرفه معرفة جيدة. فما أحلى غناءه العذب! إنني في كل مساء أحمل الطعام المتبقي من المائدة إلى أمي المريضة المسكينة التي تقيم على ساحل البحر، وفي أثناء عودتي أمكث في الغابة قليلاً واستريح، فأسمع الكروان يغرد تغريداً يجعل الدمع ينساب غزيراً من عيني.

فقال اليارو: اسمعي أيتها الفتاة الصغيرة.. إنني سأحصل لك على وظيفة مضمونة في المطبخ، وبهذا سوف ترين الامبراطور وهو يتعشى، فقط عليك أن تخبريني بمكان الكروان وتقوديني إليه. إنهم ينتظرونه في البلاط هذا المساء.

ففرحت الطفلة بما قال الياور، واصطحبته إلى الغابة حيث أعتاد الكروان أن يغني، وكان معهما نصف الحاشية. وبينما الجميع في طريقهم أخذت بقرة تخور، فقال غلمان البلاط: الآن قد وقعنا عليه أ أعجب هذا الصوت الذي يظهر من هذا الحيوان الصغير! حقاً لقد سمعناه من قبل في مكان ما.



..فرحت الطفلة بما قاله اليارور واصطحبته إلى الغابة وكان معها نصف الحاشية..

فقالت خادم المطبخ الصغيرة: إن ما تسمعونه ليس إلا خوار بقرة ولا نزال بعيدين عن الكروان.

ثم سمعوا نفيق الضفادع في البركة، فقال واعظ البلاط: هذا مدهش! فالآن أسمعه، أن له صوتاً كرنين الأجراس الصغيرة.

فقالت خادم المطبخ الصغيرة: كلا إن هذه ضفادع أما الكروان فإننا سنسمعه قريبا.

وأخذ الكروان يغني فصاحت البنت الصغيرة: ها هو ذا! أنصتوا أنه واقف على أحد الأغصان هناك.

فقال الياور: هل يمكن هذا. ما كنت أظن ذلك. فما أبسط منظره!

ونادت خادم المطبخ: أيها الكروان الصغير، إن أمبراطورنا الكريم يريد أن تغني له قليلاً.

فأجاب الكروان: بكل سرور، وغرد تغريداً سحر الجميع.

فقال الياور: إن لصوته رنيناً كرنين أجراس مصنوعة من الزجاج أنظروا إلى حنجرته الصغيرة كيف تتحرك! أليس غريباً أننا لم نسمع شيئاً كهذا من قبل؟

وسأل الكروان: هل يريدني التمبراطور أن أغني مرة أخرى؟

فقد كان يظن أن الأمبراطور من بين الواقفين.

فقال الياور: يا أروع كروان في الوجود! إن لي الشرف بأن أدعوك إلى حفلة في البلاط تقام في هذا المساء، ليفتتن فيها مولاي الأمبراطور بصوتك العذب.

قال الكروان: إن صوتي يحلو وقعه بين الأشجار الخضراء.

ولكنه سار معهم في النهاية عن طيب خاطر، وخاصة حينما عرف أن الأمبراطور مشتاق إلى سماع صوته.

وكان القصر قد لبس أزهى حلة، فكانت حيطانه وأرضه– وكلها مصنوعة من الخزف– تلمع في ضوء ألف مصباح من الذهب الخالص. وكانت أجمل الأزهار والأجراس ذات الرنين الحلو موضوعة في الممرات. وفي وسط القاعة الكبرى، حيث جلس الأمبراطور ، وأقيم مقعد صغير فاخر في مكان مرتفع ليجلس فوقه الكروان، وكانت الحاشية كلها حاضرة وأذن لخادم المطبخ الصغيرة أن تقف خلف الباب، فقد كان ابتهاجه بهه

عظيما، فأمر بوضع حلية ذهبية حول عنقه، وأوفى الياور بوعده لها ومنحت لقب «فتاة المطبخ» وكان الجميع يرتدون أفخر الثياب، واتجهت كل الأنظار نحو الطائر الذي أشار إليه الأمبراطور ليبدأ الغناء.

وغنى الكروان غناء انسابت له الدموع من عيني الامبراطورة وبللت خديها، وتأثرت قلوب جميع الحاضرين، أما الأمبراطور فقد شكر الكروان وقال: لقد نلت أكبر الجزاء، لقد رأيت الدموع في عينى مولاي الأمبراطور، وهذا خير جزاء أناله. لأن دموع الأمبراطور دموع غالية، ثم عاد إلى الغناء بصوته العذب.

حقا لقد كان نجاح الكروان عظيما، وقد تقرر أن يبقى في البلاط وأن يكون له قفص خاص به، كما تقررت له أجازة يطير فيها خارج قفصه مرتين بالنهار ومرة بالليل. وقام على خدمته أثنا عشر خادما، يمسكون بشريط حريري مربوط حول قدميه، فكانت قبضاتهم محكمة على هذا الشريط. ولكن كل هذا لم يسعد الكروان بأية حال.

وأخذت المدينة تتحدث عن الطائر العجيب، وأخذ الآباء يطلقون على أبنائهم الجدد اسم «كروان» حتى لقد سمى بهذا الاسم أحد عشر طفلا في المدينة، ولكن لم يكن لأحد من هؤلاء الأطفال مثل أنغام الطائر العذبة الشجية.

وفي ذات يوم وصلت باسم الامبراطور لفافة كبيرة مكتوب عليها «كروان» فقال الأمبراطور: هذا كتاب جديد آخر عن طائرنا الشهير ولم يكن كتاباً، بل كان آلة صغيرة في صندوق على شكل كروان صناعي يشبه

الكروان الحي إلى حد كبير، ولكنه كان مرصعاً كله بالماس والياقوت الأحمر والأزرق فإذا أدير لولب هذا الكروان الآلي أمكنه أن يغني لحناً واحداً من ألحان الكروان الحي، وكان ذيله البراق يعلو في أثناء ذلك ويهبط.

وقال للجميع: هذا مدهش! الآن يجب أن يغنيا معا، وسيكون لنا منهما أغنية ينشدها أثنان، وغنى الطائران معا، ولكن الكروان الحقيقي كان يغني بأسلوبه الخاص، أما الكروان الآلي فكان يخرج نغماته إذا دارت العجلات بداخله، فرأى البعض أن يغني الكروان الصناعي وحده، فغنى ونجح مثل الكروان الحقيقي، هذا بالإضافة إلى أنه كان أجمل منه منظراً، وأن ريشه كان يتلألأ كالجواهر.

وقد غنى أغنية وكررها ثلاثين مرة دون أن يصيبه التعب وتمنى الجميع أن يسمعوه مرة أخرى، ولكن الامبراطور أشتاق إلى سماع الكروان الحقيقي، وعندما ذهبوا لإحضاره لم يجدوه، ولم يكن أحد قد لاحظ أنه طار من النافذة المفتوحة إلى غابته الخضراء، فحنق عليه الأمبراطور وأمر بنفيه من البلاد.

وحل الطائر الصناعي محله وعلى وسادة من حرير تلاصق فراش الامبراطور وأحيط بكل الهدايا التي تلقاها من ذهب وحجارة كريمة، وأنعم عليه بلقب: مغني الفخامة الأمبراطورية السامية، واستمرت هذه الحال سنة كاملة حفظ فيها الأمبراطور والبلاط وأهل الصين جميعاً كل مقطع من أغنية الكروان الصناعي، وكان هذا هو السبب في أنهم استمتعوا بالأغنية إلى حد كبير، وأصبحوا قادرين على مصاحبته في الغناء، وصار الأولاد في الشوارع يرددون الأغنية، حتى الأمبراطور نفسه لم يكن يكف عن ترديدها.

وذات مساء حين كان الطائر في أوج غنائه، والأمبراطور يصغي إليه في استمتاع وهو مضطجع في فراشه، سمع فجأة صوت في داخل الطائر، ثم تحرك شيء في بطنه وطارت العجلات هنا وهناك وانقطعت الموسيقا. فقفز الأمبراطور من سريره بسرعة وأرسل يطلب كبير الأطباء.. ولكن ماذا يستطيعه كبير الأطباء؟ ثم استدعى صانع الساعات الذي بذل جهداً كبيراً في إصلاح الطائر. وقال صانع الساعات بعد أن أنتهى من عمله: لكن يجب إعفاء الطائر من الغناء إلا مرة واحدة في العام لأن «التروس» قد تآكلت تقريباً، ومن المستحيل تجديدها لتعود الموسيقا على ما كانت عليه من الجمال والأتقان.

ومضت على هذا الحادث خمس سنوات مرض فيها الأمبراطور وأشرف على الموت. وحزن شعبه عليه حزناً شديداً، وأخذ الناس يفدون على القصر لتحية امبراطورهم تحية الوداع. وكان الامبراطور راقداً فوق سريره الفاخر وقد تصلب جسده وأصفر وجهه، وكانت ستائر القطيفة الطويلة مسدلة على السرير وقد تدلت أهدابها الذهبية الثقيلة. وكانت فوق السرير نافذة مفتوحة يرسل منها القمر أشعته على الأمبراطور والعصفور الصناعي.



.. وفتح الامبراطور عينيه فرأى ملك الموت إلى جانبه وقد وضع على رأسه التاج الامبراطوري..

وكان الأمبراطور المسكين يكاد يختنق، فقد خيل إليه أن شيئا ثقيلا يطبق على صدره، وفتح عينيه فرأى ملك الموت إلى جانبه وقد ضع على رأسه تاج الأمبراطور وأمسك بإحدى يديه «السيف المقدس الذهبي»، وبالأخرى العلم الأمبراطوري الفخم. وشاهد من فتحات الستائر السميكة رءوسا غريبة تتطلع إليه، بعضها يبدو قبيحا جدا، والبعض الآخر يبدو لطيفا باسما. فعرف الأمبراطور أن الرءوس القبيحة العابسة تمثل سيئاته التي أرتكبها في حياته، وأن الرءوس الراضية الباسمة تمثل حسناته، وقد جاءت كلها مع موكب الموت الذي أصبح يحيط به، وخيل إليه أنه يسمع سيئائه تصرخ فيه مؤنبة. ألا تذكرني؟ ألم تفعل كذا وكذا؟ ففزع الأمبراطور مما رأي وسمع، واستبد به الهلع والرعب فأخذ يصيح: «أدركوني بالموسيقا، دقوا

على الطبل الصيني الكبير ولا تتركوني أسمع ما يقولون! غن لي أيها الطائر الصناعي العزيز! غن لي أرجوك! إنني وهبت لك الذهب والأحجار الكريمة. وأعطيتك كل ما هو غال وثمين.. أرجوك أن تغني لي!»

ولكن الطائر ظل صامتا. فلم يكن هناك أحد يدير لولبه ولم يكن الأمبراطور يقوى على ذلك، ولذا لم يستطع الطائر الغناء. ومضى الموت يحملق في وجه الأمبراطور بعينيه الكبيرتين القبيحتين. وأطبق الصمت على الحجرة وكان مصتاً مخيفاً مرعباً.

وفجأة سمع الأمبراطور لحناً عذباً صادراً من النافذة. فقد كان الكروان الحي الصغير واقفاً على غصن بالخارج، وقد جاء يغرد للأمبراطور ويدخل على قلبه العزاء والأمل، بعد أن علم بمرضه الشديد. وكان كلما استمر في الغناء أخذت الأشباح التي تحيط بسرير الأمبراطور تختفي الواحدة تلو الأخرى. وسرى الدم في عروق الأمبراطور، ودبت الحياة من جديد. أما (ملاك) الموت فقد أخذ يصغي في رضا وهو يقول: «استمر في غنائك أيها الكروان الصغير، استمر في غنائك!» فقال الكروان: «وهل تمنحني السيف المقوس الذهبي، وتعطيني العلم العظيم وتاج الأمبراطور؟».

فرد (ملاك) الموت: «هذه الكنوز جميعها لك ثمناً للأغنية» فاستمر الكروان في الغناء. أخذ يغني عن المقبرة الهادئة حيث يزهر الورد وتنتشر رائحته الزكية، وحيث تبلل الدموع المسكوبة على الراحلين العشب الطري. فاهتز (ملاك) الموت شوقاً إلى حديقته، وانطلق من النافذة طيف أبيض بارد.

حينئذ قال الأمبراطور: «شكراً شكراً، أيها الطائر السماوي الصغير أني أعرفك جيداً، لقد طردتك من ملكتي فطردت أنت بغنائك هذه الوجوه الكئيبة عن سريري، وأبعدت الموت عن قلبي، فكيف أكافئك؟».

فقال الكروان: «لقد نلت جزائي حين شهدت الدمع يترقرق في عينيك، كما شهدته عندما غنيتك لأول مرة، إنني لن أنسي تلك الدموع أبداً فهي كالجواهر التي تملأ قلب المغني المجهول بالبهجة والسعادة. فلتنم الآن يا مولاي، وانهض بعد ذلك نشيطاً معافى، ولسوف أغني لك حتى تستسلم إلى النوم الهنيء».

وأخذ الكروان يغني حتى راح الأمبراطور في سبات عميق لذيذ واستيقظ في صباح اليوم التالي سليماً معافى. ولم يكن أحد من خدمه قد جاء لأنهم جميعاً حسبوه قد مات، لكن الكروان كان لا يزال إلى جواره يغني له أعذب الألحان.

وألتفت الأمبراطور إلى الكروان وقال له: «سوف تبقى دائماً معي لتغني لي كما يحلو لك. ولسوف أحطم هذا الطائر الصناعي اللعين».

فأجابه الكروان: لا تفعل ذلك، فقد بذل ما في طاقته، واعتن به أما أنا فلا بقاء لي في قصرك، دعني وشأني إني لسوف آتي كلما راق لي ذلك، وأقف على الأغصان بجوار النافذة أغني لك حتى تصبح سعيداً مرتاح البال. سوف أغن للجميع.. للبؤساء والسعداء، سوف أغني للخير والشر اللذين يكمنان معاً في قصرك. إن المغني الصغير يطير إلى كوخ السماك، ومزرعة الفلاح، إلى جميع من هم بعيدون عنك وعن بلاطك. أن قلبك

أحب إلي من تاجك. سوف آتي وأغني على شرط أن تعدني بشيء واحد.

فقال الأمبراطور في لهفة: «بل بكل شيء!».

قال الكروان: «إنني أسألك شيئا واحدا.. لا تخبر أحدا بأن لك طائرا صغيرا ينبئك بكل شيء. إذا فعلت فسيكون كل شيء على ما يرام».

قال الكروان ذلك وانطلق طائرا إلى الفضاء الفسيح وجاء الخدم ليروا امبراطورهم الميت، ولكن الدهشة عقدت ألسنتهم حينما رأوه واقفا وسط الغرفة يقول لهم: «صباح الخير».



الشريحة الثالثة

«... وكانت أمه تنظر إليه أحيانا وتقول له: أنه يعيش في ترف وأنه أسعد حالا منها يوم كانت في مثل سنه.. فقد كانت– وهي طفلة– تخرج مرغمة، وكثيرا ما غلبها الشعور بالخجل على أمرها.. فتجلس طول اليوم

تحت القنطرة، تنتحب ولا تجرؤ على العودة إلى البيت دون القليل من المال...»

***

«... وفي أثناء إأقامته في بيوت الأعيان، لم ينسه منظر الأرستقراطيين الكسالى، الأثرياء، الفارغين– لم ينسه ذلك– أولئك القابعين في الجانب الآخر من البشرية: الفقراء، البؤساء، المعدمين، الذين يبيتون على الطوي أياما ويحلمون بقطعة فحم تدرأ عنهم قسوة الشتاء».

بائعة الثقاب الصغيرة

البرد قاري، والثلج يتساقط سريعا، والليل أوشك أن يرخي سدوله على حين أن فتاة صغيرة مسكينة عارية الرأس، حافية القدمين لا تزال تجول في الطرقات.



وكانت تلبس خفين حين خرجت من بيتها، لكن هذين الخفين كانا أكبر من قدميها– فهما لأمها– فانفلتا من قدميها حينما كانت تجري مسرعة في عرض الطرق لتتفادى من مركبتين مقبلتين. ومن لهفتها ضاع أحد الخفين ولم تعثر له على أثر، واختطف الخف الآخر غلام صغير وانطلق يعدو به.

سارت الفتاة حافية، فاحتقنت قدماها من البرد، وكانت تحمل حزمه صغيرة من أعواد الثقاب في يدها، وحزما أخرى في ثوبها الممزق ولم تكن قد باعت في يومها حزمة واحدة ولم يعطها أحد بنسا واحدا. وأخذت تجر نفسها جرا وترتعش من البرد والجوع.. مسكينة أيتها الطفلة الصغيرة.



وكان الثلج يتساقط فوق شعرها الأشقر الطويل المجدول فوق كتفيها في حلقات لطيفة، ولكنها لم تكن تفكر في جمالها أو في البرد القارس، فقد كانت الأنوار تنبعث في كل نافذة، ورائحة الأوز المشوي تنتشر في منازل عدة لأن تلك الليلة كانت ليلة رأس السنة.. هذا ما كانت تفكر فيه.

وجلست الفتاة القرفصاء في أحد الأركان، ووضعت قدميها الصغيرتين من تحتها تريد أن تدفئها، ولكن لم تستطع، فقد كان البرد يتسلل إلى جميع أطرافها من الثقب التي تملأ ثوبها، ولم تجرؤ على العودة إلى البيت، فإنها لم تبع ثقابا، ولم تحظ ببنس واحد، وقد يضربها أبوها لو عادت، إلى أن مسكنها ربما لا يقل بردا عن الطريق لأنه كان في غرفة السطح، ومع أن الشقوق الكثيرة المنتشرة في سقفه قد سد أكبرها بالقش والخرق، فإن الريح والثلج يجدان طريقهما بسهولة إلى الداخل، كأنهما يسعيان إلى

الدفء أيضا.

كانت يداها تبدوان كما لو أنهما لا حياة فيهما، وقد يدفئهما عود واحد من الثقاب لو تجرأت فأشعلته وسحبت عودا وقدحته في الجدار.. يا إلهي! يا له من لهيب لامع دافيء! ووضعت يديها فوق اللهيب الصغير، فبدا لها شمعة سحرية، وخيل إليها أنها جالسة بجوار موقد حديدي كبير محل بزخرف من النحاس، وبداخله نار تتأجج.. ومدت الطفلة قدميها لتدفئهما، ولكن واأسفاه! لقد انطفأت الشعلة الواهنة بعد لحظة، واختفى الموقد الذي كان يملأ عالمها، وعادت إلى البرد والحرمان، وعود محترق بين أصابعها الدقيقة.

وقدحت عوداً آخر في الجدار، فأضاء والتهب، وكان الضوء المنبعث من العود يكشف عن الجدار، فأستطاعت الفتاة أن ترى ما يجرى في الحجرة وراءه. رأت مائدة مغطاة بقماش ناصع البياض وفوقها بعض صحاف من الخزف اللامع.

وكانت أوزة مشوية، ومحشوة بالتفاح والبرقوق المجفف في طرف من أطراف المائدة، يتصاعد منها الدخان، وكان أجمل من هذا وأمتع للعين أن الأوزة قفزت من الطبق، والسكين والشوكة لا تزالان في صدرها، وأخذت تمشي فوق الأرض متجهة إلى الفتاة المسكينة.

وانطفأ العود الثاني، وانطفأت من ثم كل الخيالات التي عاشت فها لبضع لحظات، وإذا بها تجد نفسها قابعة إلى جوار الجدار السميك البارد، وأشعلت عود ثقاب ثالثا، واندلع اللهب مرة أخرى فإذا بها تجلس تحت

شجرة من شجر عيد الميلاد من أجمل ما رأت في حياتها، بل أنها لأكبر وأروع من التي شهدتها خلال الزجاج في بيت التاجر الغني ليلة عيد الميلاد الماضي، وكانت مئات من الشموع تضيء الأغصان الخضراء، وعرائس ملونة صغيرة كالتي شهدتها في معارض الحوانيت تطل عليها من الشجرة.

فمدت الفتاة يديها نحوها فرحة، ولكنها لم تكد تفعل حتى انطفأ عود الثقاب، ومع ذلك فقد كانت شموع عيد الميلاد لا تزال تشتعل ويرتفع لهيبها، وقد شهدتها تتلألأ كنجوم السماء، ورأت أحداها تسقط وكان الضوء المنبعث من ورائه يشبه ذئباً نارياً طويلاً.

وقالت الفتاة الصغيرة في صوت ضعيف: «الآن يحتضر بعض الناس» وكانت جدتها العجوز قد أخبرتها بأنه كلما سقط نجم صعدت روح إلى بارئها. وجدتها العجوز كانت هي الشخص الوحيد الذي حنا عليها من بين الناس أجمعين، وهي الآن في جنات الخلد. وحكت الفتاة بالجدار عوداً آخر من الثقاب فاشتعل، وظهرت للفتاة الجدة العزيزة نفسها وسط النور المنبعث من العود، وهي على ما عرفت به من لطفوايناس، لكنه كانت هذه المرة مشرقة سعيدة أكثر مما بدت في حياتها الأولى.

وصاحت الطفلة الصغيرة: أواه يا جدتي! خذيني معك، فإني أعلم أنك ستتركينني بمجرد ما ينطفيء العود. ستختفين كما اختفت نار الموقد الدافئة، ووليمة السنة الفاخرة، وتذهبين كما ذهبت شجرة عيد الميلاد الجميلة، وبسرعة أشتعلت كل الأعواد الباقية في الحزمة حتى لا تختفي جدتها.

اشتعلت أعواد الثقاب، فكان لها وهج عظيم لا يفوقه وضح النهار

وبدت الجدة العجوز الطيبة كما لم تبد من قبل. أطول قامة وأبهى منظراً، وأجل مظهرا، واحتضنت الفتاة الصغيرة وطارتا معا.. وكانتا تطيران في هالة من الغبطة والجلال، وأرتفعت بها ثم ارتفعت، حتى بلغتا المكان الذي لا يعرف فيه البرد ولا الجوع ولا الألم.. لقد دخلتا الفردوس.

وقال الناس: «لقد كانت تريد أن تستدفيء تلك المسكينة، لكن أحدا لم يعلم بالرؤى التي رأتها، ولا بالأحتفال المجيد الذي أحيت به الفتاة وجدتها ليلة رأس السنة!».



الشريحة الرابعة

إن قصة غرامه بريبورج كانت تتسم بطابع المرارة والألم، فما الذي جعلها تتنكر له؟ وهل تنكرت له برضائها بالرغم عنها؟ لقد كان هو في (فابورج)– بلدها– شاعرا وكاتبا كبيرا من كوبنهاجن.. ولا شك أنه كان في نظرها يوم ذاك شخصية ضخمة أما في العاصمة– كوبنهاجن– فقد سمعت بأذنيها كيف يسخر الناس من «شاعرها» وكيف يسميه بعضهم «عمود النور» و«أبو مركوب»ولعلها أدركت أنها غير واثقة من حبها له.. أو قد يكون الأمر على العكس أي أن هانز أندرسن، برغم تأكيداته واحتجاجاته، هو الذي تنكر لها بعد أن خمدت– سرا– عاطفته نحوها! لقد كانت (ريبورج) في (فابورج)، بين أهلها ومظاهر ثرائها، «إنسانة» في نظره رائعة.. أما في كوبنهاجن فلم تكن غير فتاة قروية بسيطة .. إن قصة «الكرة والخذروف» ترجح الرأي الأول.

***

الكرة والخذروف

كان خذروف وكرة يقيمان معاً بين بقية اللعب في أحد الأدراج. فقال الخذروف (النحلة) للكرة: «لم لا نصبح عروسين ما دمنا نجتمع معا كثيراً؟»".

ولكن الكرة– وهي مصنوعة من جلد الماعز الرقيق– كانت تتصور نفسها آنسة عصرية، فلم تضع إلى هذا الكلام. وفي اليوم التالي جاء الغلام صاحب هذه اللعب إلى الدرج فدهن الخذروف باللونين الأحمر والأصفر، ودق وسطه مسماراً نحاسياً، وبذلك أصبح له منظر بهيج حينما يدور.

وقال الخذروف للكرة: «انظري إلي... ما رأيك الآن؟ ألا أصلح لك زوجا؟ أن كل واحد منا يلائم الآخر، أنت تقفزين وأنا أدور، ولن يكون هناك أسعد منا لو تزوجنا».

فقالت الكرة: «أتعتقد ذلك؟ لعلك لا تعلم أن أبي وأمي كانا خفين من جلد الماعز، وأن في جسمي قطعاً من الفلين».

قال الخذروف: «ولكني مصنوع من خشب (الموجنا) صنعني العمدة بيديه، وكان يملك مخرطة، فأخذ يسلي نفسه بخرطي..».

قالت الكرة: «وهل أستطيع أن أصدقك في هذا؟».

فأجاب الخذروف: «أدعوا الله ألا ألهب بالسوط مرة أخرى إذا كتب أكذب».

فقالت الكرة: «إنك تقول صدقا، ولكني لست حرة، فأني في حكم المخطوبة لعصفور صغير، فقد كنت كلما ارتفعت في الهواء أطل برأسه من عشه وقال: «أتتزوجينني؟» وقد وافقت بيني وبين نفسي، وهذا يقرب أن يكون خطبة، ولكني أعدك بشيء واحد.. وهو أني لن أنساك أبداً..».

قال الخذروف: «إن هذا سوف يفيدني فائدة كبيرة» وسكت عن هذا الموضوع فلم يذكره مرة أخرى.

وفي اليوم التالي أخذت الكرة من الدرج، ورآها الخذروف ترتفع في الهواء كالطير، وأخذت ترتفع حتى غابت عن الأنظار؛ ثم عادت إلى الأرض، لكنها كانت كلما مست الأرض قفزت ثانية إلى أعلى مما كانت..

وقد يكون الحب (بضم الحاء) أو الفلين الذي في جوفها هو الذي يفعل ذلك. وفي المرة التاسعة لم تعد، فبحث عنها الغلام في كل مكان، ولكنه لم يعثر لها على أثر.

فتنهد الخذروف وقال: «إني أعلم أين هي.. إنها في عش العصفور تحتفل بعرسها». وكلما ازداد الخذروف تفكيرا في هذا ازدادت الكرة ملاحه في عينيه، وكلما أحس أنها لن تصبح زوجته ازداد هياما بها، لقد فضلت عليه غيره؛ وهو لن ينسى ذلك أبدا. وأخذ الخذروف يدور ويدوي لكنه لم يكف عن التفكير في الكرة العزيزة التي أخذت تزداد في عينيه رقة وجمالا. ومرت السنوات ولكن حبه لم يهدأ أو ينطفيء.

وكان الشباب قد ولى عن الخذروف وتقدم به العمر، ولكنه طلى ذات يوم بالذهب فلم يبد من قبل أجمل مما بدا في ذلك اليوم، وهو الآن خذروف مذهب يدور في شجاعة عظيمة ويدوي طوال الوقت. لقد كان هذا شيئا عظيما! لكنه وثب مرة إلى أعلى مما ينبغي واختفى عن الأنظار، وبحثوا عنه في كل مكان فلم يجدوه على الأطلاق.

فأين ذهب يا ترى؟ لقد قفز إلى برميل حافل بكل أنواع القاذورات بين عمدان الكرنب والقمامة والتراب..

وقال الخذروف: «واحسرتاه! أيكون هنا مرقدي؟ إن لوني الذهبي سوف يفسد عما قريب. انظروا مع أي نوع من القاذورات سقطت». ونظر إلى عود كرنب ملقي على مقربة منه يتملكه الخوف، ثم إلى شيء غريب مستدير يشبه التفاحة، لكنه لم يكن تفاحة بل كان كرة قديمة بقيت

في هذا المكان عدة أعوام وتشربت كلها الماء.

وقالت الكرة: «شكرا لله.. لقد رزقت أخيرا رفيقا ذا كفاية يجوز لي أن أخاطبه». وحدقت ف الخذروف المذهب، ثم قالت: «لقد صنعت من جلد الماعز الحقيقي، وحاكتني يدا آنسة صغيرة، وفي جسمي فلين، ومع ذلك فلن يلتفت إلي أحد بعد الآن. لقد كنت وشيكة الزواج من العصفور حين سقطت في هذا المكان البشع، وبقيت هنا خمس سنوات وأصبحت الآن متشربة بالماء المعفن. فأنظروا أي بؤس بعد هذا؟».

لكن الخذروف لم ينطق، فقد كان يفكر في رفيقته التي لبثت يندبها هذا الزمان الطويل، وكلما أخذت صاحبته تقص روايتها أيقن أنها هي بعينها.

وأتت الخادم عندئذ تريد أن تقلب البرميل لكنها صاحت: «مرحى! ها هو ذا الخذروف المذهب!».

وأعيد الخذروف إلى قاعة اللعب،واستعمل من جديد ونال الإعجاب كسابق عهده، لكن شيئا لم يسمع عن الكرة، ولم يتحدث الخذروف حتى عن حبه السابق لها، لأن شعوره نحوها قد تبدد، وكيف لا يكون الحال كذلك وقد مكثت في البرميل القذر خمس سنوات كاملة وتغيرت كثيرا حتى ما كاد يعرفها حينما لقيها في البرميل بين النفايات.

الفصل الرابع

الشاعر الفيلسوف

١- نفسه الشاعرة

من الأقاصيص التي تضمنها الفصل السابق– على سبيل المثال– نرى أن شخصية أندرسن وحياته الخاصة قد أسهمتا إلى حد كبير في خلود أعماله، ويمكننا القول أننا سواء كنا على دراية بأعماله الأخرى أم لم نكن، فإن أقاصيصه الأسطورية كافية للكشف عن خصائص فنه وروحه.

ولقد عرفنا أن أندرس بدأ حياته الفنية مبكرا، ولكن السنوات العشر الأولى منها كانت تنقصها الشخصية، والأصالة الذاتية ولم يتأت له ذلك إلا منذ سنة ١٨٣٥. ولقد ظهرت أولى هذه الملامح الخاصة في قصته «خطوات المجد» وكان قد كتبها بالطريقة السهلة الممتعة التي أخذها عن مدرسه (هايبرج) مع تميزها بسحر طبيعي ومرونة لم تصل إليها تلك الجماعة الأدبية. وهذه القصة عبارة عن لمحة هزلية لمجتمع كوبنهاجن في ذلك العهد، وبها تغير مفاجيء يقودنا إلى أرض الأساطير دون أن نحس بأي ارتباك ينتاب قلم أندرسن الرشيق.

وجاءت المرحلة الثانية مع «قصة أم» حيث اختفت الاستطرادات العاطفية والسخرية اللاذعة التي تميزت بها المرحلة الأولى. أما المرحلة الأخيرة فهي المرحلة الذهنية، وهي التي كتب فيها أندرسن أخلد أعماله،

بل هي التي أخرجت الأدب الدنماركي من النطاق المحلي إلى النطاق العالمي.

ومن وراء أية واحدة من هذه المراحل الثلاث نستطيع أن نستشف شاعرية أندرسن وفلسفته، وقد كان أندرسن من أولئك الذين يحملون في قراراتهم ملامح الرجل الفطري برغم وجوده في قرن بلغ من الثقافة والتطور درجة كبيرة. وتمثلت هذه الفطرية في الطاقة الهائلة من النشاط التي كانت تتملكه، وهذه من الملامح المميزة لسكان المناطق غير المتمدينة، ولقد آثار أندرسن بذلك رعب الباحثين وإعجابهم. أنه لم يكن يعرف الراحة أو الاستقرار قط. كان دائم الترحال في عصر كانت الأسفار فيه موقوفة على أصحاب الملايين أو كبار التجار أو المغامرين. كما أنه أضنى نفسه وأنهكها من أجل انتاجه، تماما كما فعل بلزاك وكيركجورد. وبذا كان لأندرسن ذكاء الرجل البدائي وفطنته، وكانت لديه البراعة والمقدرة على خلق مفاهيم جديدة بدلا من استعمال المفاهيم التي كانت في متناول الجميع.

وكانت لأندرسن أحاسيس الرجل الفطري في عنفوانها وتفجرها، فقد سعى لأن يرى كل شيء ويتذوقه ويحسه، وتعتبر أقاصيص أندرسن أكثر الأعمال المحسوسة بعد اتشار أوهلنشليجر، فهذه الأقاصيص تنبض باللون والضوء والحركة في أصالة ومعاناة لا تتأتى إلا لموهبة طبيعية غير عادية.

أما حياته العاطفية فكانت من العنف بحيث أرعبت معاصريه، بل وأرعبته هو أيضا. فقد ولد أندرسن بحساسية عصبية جعلته يشعر كل شيء في حدة فائقة، وترتب على هذا قيامه بتصرفات، وتقلبات مزاجية أعنف

مما هو معهود في الرجل العادي.

والواقع أنه كان من رأي معاصريه أنه لا علاقة معقولة بين ما يبدو عليه من بهجة غامرة أو ما يكتسحه من يأس أسود وبين الحادثة التي تدفعه إلى تلك الانفعالات. فقد كان يبكي فرحا عندما يتلقى- وهو في الخارج- خطابا من أحد أصدقائه بالدنمارك، وكان يقع في هوة من اليأس عندما يخيل إليه أن الناس قد قسوا عليه، أو عندما يفشل في أحدأعماله، أو إذا ضايقه شيء كبير أو صغير.

ويروى عنه أنه بعد أن فرغ من كتابه «قصة أم» أمتلأت نفسه بالبهجة ومضى مسرعا نحو عائلة من أصدقائه المقربين ليقرأ عليها القصة بصوت عال. (والقصة تروي حكاية أم اختطف الموت وحيدها)، ولم يكن أندرسن يدري أن الأسرة التي يقرأ عليها القصة قد فقدت طفلا لها منذ بضع سنوات. وما أن اكتشف اندفاعه الطائش، حتى نسى تماما قصته وانكفا على قدمي الأم الحزينة وأخذ يبكي معها بكاء مرا.

وأخيرا كان لأندرسن إيمان الرجل الفطري، ويجب ألا يخدعنا كونه قد أخذ عن والده المعالجة الذهنية الناقدة للمعتقدات المسيحية، فقد كان أندرسن في إيمانه وفي ارتداده- على السواء- فطريا.

ويمكن أن ندرك ملامح هذا الإيمان الفطري إذا عدنا بذاكرتنا إلى الأيام التي كان يتدرب فيها أندرسن على الغناء على يد «سيبوني». وكان أندرسن يريد الإقامة في أحد «البنسيونات» في «أولكجاد»، فأصرت صاحبة «البنسيون» على إيجار شهري قدره ٢٠ جنيها في الوقت الذي لم

يكن لدى أندرسون سوى ستة عشر جنيها. ويروي أندرسن هذه الحادثة فيقول: «... وأصرت المرأة على موقفها حيث تركتني وغادرت الغرفة وقد استولى علي حزن شديد وانهمرت الدموع غزاراً من عيني، وفجأة شاهدت صورة لزوجها الراحل معلقة على الجدار في إحدى الأرائك، فمضيت إليها كالطفل وبللتها عن آخرها بالدموع المنسابة من عيني، حتى يدري الرجل– هكذا تصورت– إلى أي مدى أني تعس وحزين، فيحمل زوجته على النزول عن صلابتها فتقبل المبلغ الذي في جيبي، ولابد أن المرأة فهمت أنه غير الممكن أن تحصل على أية زيادة أخرى، لأنها بمجرد أن عادت أخبرتني بالموافقة على أيوائي بالستة عشر جنيها».

هكذا كان أندرسن..كان فطريا في ذكائه، وفي أحاسيسه، وفي إيمانه. وعلى عاتق مثل هؤلاء الناس– الذين ينطوون على آثار من الفطرة إزاء حضارة متطورة– يقع عبء التقدم الثقافي. أنهم هم المخترعون، وما على غيرهم إلا أن يجني ثمرة ما وصلوا إليه. وأن خط النضال الذي يسيرون عليه ليعيشوا بالأسلوب الأكثر طبيعة بالنسبة لهم هو المضمون الرئيسي لقصص حياتهم، وهذا هو ما يوحي بأنهم شواذ غريبو الأطوار.

وتكمن عظمة أندرسن في قبوله لكل ما مني به من غرابة وشذوذ على أنها هبة من الله، كما تكمن أيضا في حقيقة أحساسه بأنه أصطفى ليكون شاعرا فقد كان يعرف قدر نفسه. وبينما نراه قد ضحى بكل شيء من أجل رسالته، فإن كثيرا من معاصريه كانوا يعتبرون هذه الخاصية بالذات نوعا من الغرور. وربما كان ذلك صحيحا في بدء حياته، ولكنه تطهر من أي احساس بالغرور فيما بعد، ويرجع الفضل في هذا أولا إلى (أورستد)

أستاذه الذي قاده إلى نبع الفكرة الصافي، لقد جعله أورستد يحس بأن حياة المرء المصطفى يجب أن تكرس من أجل الفكرة التي اصطفى من أجلها.

وجاءت بعد (أورستد) (جين لند) فأعطته درسا مجيدا حينما كشفت له أن الفنان يجب ألا يعيش إلا من أجل رسالته، ناسيا كل شيء حتى نفسه.

ووعى أندرسن كل هذا، فتعلم تلك الحياة بعد ذلك، وبرغم اصراره وقوة شخصيته، وكبريائه التي كان يبدو بها– كشاعر– أمام الناس. فإنه أمام الله كان يذوب تواضعا وطفولة.

إن حياته الروحية كانت تتسم بميزتين أساسيتين إلى جوار ملكاته الفنية وموهبته الشعرية.

وأولى هاتين الميزتين أنه كان يثق ثقة قاطعة في (ملاك) الذي يحرس عبقريته، وفي أن هذه العبقرية لن تتخلى عنه على الاطلاق.

أما الميزة الأخرى فهي تلمذته على الطبيعة التي لم يكن يكف عن الذوبان في أجوائها والتعهد في محرابها منذ أن كان يهرع بخيمته الصغيرة التي صنعها من أحد أثواب أمه نحو غابات (أودنز)، إلى أن أخذ يجوب آفاق أوروبا ويقف مذهولا أمام مفاتن الطبيعة الخلابة.

وهكذا فإن أندرسن يبدو بأصدق صورة في هاتين الحالتين.. حينما ينصت إلى نداء عبقريته، فيندفع غير مبال نحو تحقيق آماله، وحينما يسلم حواسه إلى الطبيعة وينقلب بين أحضانها طفلا صغيرا.

ولم يحدث أن تعارضت القوتان أو اصطدمتا، بل على العكس كونتا حلفا مقدسا، وجعلتا من أودنز، القرية الصغيرة، لعبة يهفو إليها الصغار والكبار على حد سواء في جميع أنحاء الدنيا.

***

٢- زهرتان من روضة شعره

أرض الوطن

في الدنمارك، أرض البساطة، كان مولدي...

وفي ثراها العذب تعمقت الجذور التي منها استمددت كل كياني...

فيا لغة الوطن، أن رنينك عذب رخيم...

وليس كرنين لغة الوطن (بلسم) للنفوس...

وياساحل الدنمارك الباسم

حيث تحتشد قبور الفايكنج المحاربين

ومن حولها تزدهر البساتين...

وتتجمع شجيرات حشيشه الديثار...

إنك.. أنت التي أحبها، يا أرض الوطن الحبيب.

أين يتألق الصيف في المروج الزاهرة؟

أشد مما في بسمات الساحل البهيج.

أين جمال الظل الواقع على حقل البرسيم وقد غمره ضوء القمر من

جمال شاطيء الوطن؟

فيا ساحل الدنمارك الباسم

حيث يرفرف علم الوطن الغالي

إنه هبة من الله.. الذي منحك الخلود.

إنك.. أنت التي أحبها يا أرض الوطن الحبيب..

غزوت أرض الأنجليز يوما وحكمت بلادهم..

وبلاد الشمال كلها.. ولكنهم يقولون أنك قد ذويت الآن..

وأصبحت أرضا صغيرة، ولكن في أنحاء المعمورة..

تتردد أغاني بلبلك[١].. وتقف تماثيل فنانك[٢]..

فيا ساحل الدنمارك الباسم

أن المحراث يخرج من باطن أرض الكنوز الذهبية.

جعل الله مستقبلك يا وطني كذهب أرضك.

فأنك.. أنت التي أحبها، يا أرض الوطن..

فيا أرض البساطة التي كان فيها مولدي..

وفي ثراها تعمقت الجذور التي استمددت منها كياني..

رنين لغتها العذبة الرخيم.. لغة أمي..

---

(١) الشاعر الدانمركي أوهلنشلاجر.

(٢) المثال الدانمركي تورفالدسن.

وقد طرب فؤادي مثل موسيقاها.

وياساحل الدنمارك الباسم

حيث أقام البجع أوكاره

وفي جزائرك الخضراء يجد قلبي الراحة والهدوء..

فإنك أنت التي أحبها يا أرض الوطن..

الطفل المحتضر

(من وحي الأيام الكئيبة التي عاشها أندرسن في بيت ميسلنج)

أماه.. إنني متعب.. وأريد الآن أن أنام.

دعيني استغرق في النوم، وأشعر بقربك مني..

ولكن لا ينبغي أن تبكي.. أرجوك.. هل تعدينني؟

إني لأشعر بدموعك الحارة تنثال على وجهي..

الجو هنا بارد، والرياح في الخارج جد عاصفة..

ولكن في الأحلام.. آه لشد ما أحب ما فيها!..

فهل أستطيع أن أرى أحبابي من الملائكة الصغار..

عندما أغلق عيني الغافيتين.. وأستريح..

أماه.. انظري.. ها هو ذا (الملاك).. هنا.. بجانبي

هل تسمعين تلك النغمات العذاب تنساب؟

هل ترين أجنحته.. جميلة.. بيضاء؟

يقينا.. أن الله هو الذي منحه إياها..

وأن الأطياف الخضراء والحمراء والصفراء تنتشر حولي..

إنها الأزهار التي تنثرها الملائكة احتفاء بي..

ترى، هل سيكون لي أجنحة وأنا على قيد الحياة؟

يبدو يا أماه، أن هذا لن يكون إلا بعد الوفاة..

أماه.. لماذا تضمينني بهذه القوة إلى صدرك؟

لماذا تضعين خدك هكذا على خدي؟

ولماذا أشعر بخدك في آن واحد مبللا.. ملتهبا؟

أماه.. لسوف أبقى معك.. دائماً!.

نعم.. ولكن.. ما هكذا تسرفين في التنهيدات..

فأنك حين تبكين سأبكي.. أترين

إلى أي حد أنا متعب؟.. أن عيني توشكان أن تنعسا

أماه.. انظري.. إن (الملاك) جاء يقبل مني الجبين..

٣- قبس من فلسفته

كانت الرحلة التي بدأت بأندرسن وهو غلام فقير وانتهت به مستشارا للدولة رحلة حافلة بالأحداث، خبر فيها مختلف الطبقات الاجتماعية. فعرف في طفولته عامة الشعب الذين يعيشون يوما بيوم، بعيدين عن الأضواء؛ قابعين في الجانب المهمل من الإنسانية. ولم تنسه الأحداث التي مرت به ذلك الوسط الذي فتح عينيه عليه لأول مرة، بل

ظل مشدودا إليه حتى إذا ما تملك ناصية القلم أخذ يدافع عن بيئته الأولى ويكشف للناس عن كوامن الخير فيها.

ولقد كان من مميزات ذلك العصر المتطلعات السامية الخيالية وعبادة الأبطال القدامى للجنس الشمالي، فكان عصرا في حاجة إلى ناقوس يوقظ جوانب العطف فيه، وجاء أندرسن ليخلق «أبطالا» جددا من أولئك المهملين القابعين وسط الظلال.

وما أن نزح أندرسن إلى كوبنهاجن حتى أستطاع أن يرقي إلى أعتاب الطبقة المتوسطة فأخذت تتبدى له أخطاؤها يوما بعد يوم، ثم استطاع بعد ذلك أن ينزل ضيفا على كثير من الأرستقراطيين في الداخل والخارج. وفي كل الأوساط التي تقلب فيها أندرسن صاحبته تجاربه وخبرته بالطبيعة والحياة.

على أن أندرسن حينما أخذ يلقي الضوء على عيوب الناس وأخطائهم، لم يكن يخرج هذه الشخصيات عن دائرة الجنس البشري. فلم يكن أندرسن في سخريته ساخرا وحسب، مثل بعض الممارسين لهذا النوع من الكتابة. إنه حين صور لنا فتاة يكاد يقضي عليها البرد ليلة عيد الميلاد بجوار نافذة منزل ينبعث منه الدفء والشبع والسعادة، كان يصور كل ذلك بدون هدف سياسي، وإنما أراد أن يقود الناس من أيديهم إلى أعمق أعماق إنسانيتهم. ولقد ظل أندرسن في جميع مراحل صراعه على اتصال دائم بالحياة، قابضا على أدراكه المتواضع بأن الحياة معجزة وستظل هكذا دائما.

ولقد أخبرنا أندرسن بكل ذلك في قصصه الأسطورية. وبعض هذه القصص يتصل بالناس مباشرة، وبعضها صور متحركة للحياة اليومية مثل قصة «بائعة الثقاب الصغيرة» وهناك قصص أخرى تؤدي الأشجار والأزهار والحيوانات والجمادات الأدوار الرئيسية فيها على حين يبدو الإنسان في المنظر الخلفي أو لا يبدو على الأطلاق، ولكن هذه الأشياء أضا تلبس ثوب الحياة، فهي تتحدث وتفكر مثل البشر تماما. على أن مظهرها الخارجي وأفكارها تتوقف بالتأكيد على الظروف التي تعيش فيها. فالدجاج والبط قصة «البطيطة القبيحة» لا يعرف عن العالم سوى أنه فناء صغير، ولا شيء بعد ذلك الفناء على الأطلاق. أما شجرة الصفصاف تبني استنتاجاتها من التجارب التي طرأت لها في هذه الحدود.

وعلى ذلك فإن الطريقة التي تتناقش فيها هذه الشخصيات لا تختلف عن طريقة الإنسان، ولهذا نستطيع أن نقول: إن أندرسن حينما كات يورد هذه الأشياء كشخصيات حية أينما أراد أن يرمز بها إلى أفراد فعليين صادفهم في حياته. أو بمعنى آخر كان أندرسن يقدم صورا كاريكاتورية للنماذج الحية التي عاصرها: فهو- مثلا- حينما كتب عن شجرة الصفصف أراد أن يتحدث عن أولئك الناس ذوي الطموح الذي لا يشبع، أما الدجاجة التي كانت في بيت السيدة العجوز حيث ضلت البطيطة القبيحة فلم تكن سوى «تشخيص» للطبقة المتوسطة بكل ما تتسم به من حدود.

وقد كان أندرسن يعلم أن هناك أناسا عظاما، وأناسا صغارا، الأغنياء والفقراء، السعداء والتعسين، القانعين وغير القانعين، وأنه لابد لكل نمط

من هذه الأنماط أن يعيش حياته الخاصة بالأسلوب والعادات التي تتناسب مع تلك الحياة، وأن لكل حكمه الخاص على الحياة والعالم. ويرجع ذلك كله إلى الميلاد والبيئة التي تحيط بكل فرد دون أن يكون في مقدورنا أن نقول: أن فلانا أصاب وأخطأ الآخرون، فمن الطبيعي جدا أن يكون الصياد الصيني وفتاة المطبخ الصغيرة التي تعيش في قلب الغابة بجوار البحيرات العميقة الصافية من الطبيعي أن يكون تفكير كل منهما واحساسه مختلفا تمام الاختلاف عن نظيرهما لدى رجل البلاط الذي يعتبر الاتيكيت والمركز من أهم ظواهر الحياة وأخطرها. ومن الطبيعي أيضا أن تكون لبائعة الثقاب الصغيرة– التي كانت جدتها هي الأمل الوحيد لها في الحياة قبل أن تموت– من الطبيعي أن تكون لها هي الأخرى مفاهيم مختلفة عن مفاهيم الأميرة التي ضايقتها حمصة تحت الحشيات العشرين التي كانت تنام عليها.

وليس معنى أدراك أندرسن أن لكل إنسان طريقه في الحياة، أن الشاعر كان مصابا باللامبالاة، ولكنه كان يضيق بأولئك الذين لا يعترفون بالقيم المختلفة التي تزخر بها الحياة. وهو يعني «معشر الماديين» الذين أهدروا كل ما لا يدور في فلكهم من أهداف واتجاهات ومثل. ولم يكن أندرسن يترك أية فرصة للهجوم بقوة على أولئك الناس ويتضح هذا الهجوم سافروا في «البطيطة القبيحة».

وتتضمن القصص الأسطورية فوق ذلك بعض الأفكار الفلسفية العامة. فقد أدى التعرج الذي أصاب الخط البياني لحياة أندرسن إلى أدراكه لسر المنخفضات والمرتفعات التي تمتليء بها الحياة. وفي قصته «البطيطة

القبيحة» يقول لنا أندرسن: أن العبرة بالنهاية، وكل شيء سينتهي بأفضل الحلول برغم الظلام الذي يحف بالطريق. ولقد كرر هذا المعنى في عدد آخر من قصصه. ولكن الشاعر كان يدري أيضا أن هذا ليس هو كل شيء في الحياة، وأن العالم به ظلم وأحزان أيضا.

وفي «قصة أم» يقدم لنا صورة مؤثرة عما تأتي به الأيام أحيانا من قسوة لا حدود لها، وكيف أن عطف الأم على الرجل العجوز كان جزاؤها سرقته لأبنها، وكيف طلب «الليل» و«شجرة الشوك» من الأم المسكينة أبشع ما يطلب من إنسان:

فقد طلب الليل منها أن تغني كل الأغاني التي كانت الأم تغنيها لطفلها على حين أن قلبها مكلوم على فراقه.

أما شجرة الشوك فقد طلبت من الأم أن تضمها إلى صدرها بشدة حتى يذوب عنها الجليد وتورق من جديد.

وبعد أن نفرغ من قراءة تلك القصة يعترينا احساس بأن أندرسن المتفائل قد انقلبت لديه المفاهيم وضاعت كل الثقة التي كانت تطفح بها كتاباته، ولكن أندرسن لم يكن كذلك، لأنه كان على علم بكل الظروف التي يمكن أن تقدمها الحياة لنا، كما أن النهاية التي انتهت إليها «قصة أم» لم تكن تخلو من بعض العزاء والثقة، فبرغم أحزانه وخيبة آماله كان يحتفظ دائما حتى النهاية بإيمان لا يتزعزع بجوهر الحياة الخير، وبجماها وبهجتها. وكان يؤمن بأن الذين يستعدون لتقبل نعم الحياة كبيرها وصغيرها لن تخيب آمالهم أبدا– وأنه في الإمكان أن تنقلب الأحزان إلى نعمة– فقط لو

تقبلناها بالطريقة السليمة.

ولعل أهم ما في فلسفة أندرسن هو إيمانه بأن الكفاح– وإن كان طريقا داميا– لا ينتهي مطلقا إلا بأحسن الجزاء، بصرف النظر عن الثمرة أمباشرة جاءت أم عن طريق غير مباشر، ولتفسير ذلك أقول أن أندرسن كان همه منذ الطفولة أن يكون من أعلام المسرح، وحفيت قدماه ليعتلي الخشبة الخالدة مغنيا أو ممثلا ثم كاتبا مسرحيا، ولكن كل آماله انتهت إلى لا شيء، فانكفأ يجرب حظه في الكتابة، فكتب الشعر والقصص وكتب الأسفار والخواطر، ولكن الحظ لم يواته هذه المرة أيضا، وأخيرا– وبعد ضياع عدة سنوات من عمره– وجد الثمرة فيما لم يطرأ له على بال مطلقا! وذهل أندرسن أول الأمر حين وجد أن شهرته قد جاءت عن طريق أقاصيص الأطفال.. ولكنه سرعان ما أدرك أن ذلك لم يكن محض مصادفة، بل كان الجزاء الأوفى على نضاله المستميت في سبيل المجد والشهرة برغم اختلاف الطريق الذي حدده لنفسه عما قدرته له العناية الآلهية.

حقا إن حياة هذا الكاتب الدنماركي حافلة بالجوانب التي تبين للشباب طريق الكفاح في الحياة والاتجاه نحو المجد والمثل العليا، وزاخرة بالصور الرائعة التي توضح لنا كيف يمكن قوة الإرادة والصبر على آلام الحياة، والتشبث بالهدف المرموق، أن تحقق للإنسان كل ما يرجو، بل أكثر مما يرجو.

وثمة لفتة أخرى لا تقل أهمية كشف لنا عنها أندرسن بحياته وآلامه

وجهاده المرير، والواقع أن هذه اللفتة ليست مجرد تجربة صغيرة بل أنها قاعدة إنسانية هامة أصبحت– بعد أن سلط أندرسن الضوء عليها– نصب عيني كل فنان يريد أن يصل إلى الكمال الفني. وهذه القاعدة هي: «الكمال الفني– موهبة + علم»؛ فقد كان أندرسن موهوبا منذ صغره، واسع الخيال، شديد الرغبة في الوصول إلى «الشهرة والمجد». وقد ظن أن مواهبه سوف تغنيه عن الدراسة المنتظمة، وعن الاقبال على مناهل العلم والثقافة.. فرفض أن يلتحق بالمدرسة في صغره، وتعالى أيضا عن اتخاذ أية مهنة للكسب، ومضى يشغل وقته بنظم الأشعار وتأليف القصص المسرحية بأسلوب رديء وطريقة بدائية. ولما وصل إلى الدنمارك، ظن أن أبواب المجد ستتفتح أمامه، ولكنه لم يلبث أن أفاق من أحلامه على رنين النثائح التي كانت تحيط به من كل مكان، وكانت هذه النصائح تتركز في كلمة واحدة: «العلم».. ولم يأبه أندرسن أول الأمر، ولكن الواقع الذي جابهه أقنعه بأخلاص الناصحين. وبعد أن تذوق لذة العلم ورأى ظلمات الجهل وهي تنقشع تدريجيا، عاما بعد عام، أمام نور المعرفة، أدرك أنه كان غافلا بحق، وأخذ ينهل من ينابيع العلم متداركا ما فاته طوال عمره.

هكذا كان أندرسن.. عزيمة كالسيف،وإيمانا لا يهتز بمواهبه وبالعناية الالهية، ثم تواضعا جعله يرضخ وهو في السابعة عشرة من عمره لرغبة ثلة من الناصحين الأمناء فدخل مدرسة كان أكبر تلاميذها لا يصل برأسه إلى مرفقه.

ولهذا فقد كانت فلسفة أندرسن– فلسفة الإصرار النابع عن الإيمان بالنفس وبالله– صريحة ومستقيمة، لا هي بالشاذة أو الملتوية. أنها فلسفة

نموذجية لكل جيل يبحث عن القدوة الحسنة. وهي الفلسفة التي جعلت طاغور يخاطب أهل الدنمارك عندما زارهم يوما بقوله: «لماذا تريدون أن يزداد عدد السكان عندكم.. يكفي أن يكون هانز أندرسن منكم؟».

الفصل الخامس

أندرسن حول العالم

لا جدال في أن هانز كريستيان أندرسن يتمتع بشهرة عالمية، فقد أصبحت أعماله– ابتداء من الطبعات الكاملة لكل ما كتب، إلى عدد محدود من أقاصيصه الأسطورية– مقروءة بأكثر من ٦٠ لغة مختلفة. وقد ترجم أندرسن إلى جميع اللغات الأوروبية بلا استثناء. وعن طريق هذه اللغات التي كان يتمتع الناطقون بها بالسيطرة الاستعمارية على قارتي آسيا وأفريقية منذ القرن التاسع عشر حتى قبيل الحركات التحررية الأخيرة، عرفت اللغات الآسيوية والأفريقية شأن أندرسن، حتى لغتا الكولولو الأفريقية والأسبرانتو وغيرهما.



الأم تضم إلى صدرها شجرة الشوك .. هذا المنظر يصور أحد مشاهد «قصة أم»؛ ولقد ظهر في الطبعة البنجالية للقصة ضمن مجموعة من قصص أندرسن صدرت في كلكتا سنة ١٩٣٥– ولا يخفى على القارىء الشخصية الهندية للرسم.

وقد انتشرت شهرة الكاتب الدنماركي الكبير مثلما تنتشر الدوامة التي يحدثها القاء حجر في الماء. فترجم أول ما ترجم إلى الألمانية، ثم السويدية ثم الهولندية قبل عام ١٨٤٠. ثم ترجم في روسيا وأنجلترا والولايات المتحدة حوالي عام ١٨٤٥. وبعد ذلك بقليل ترجم في فرنسا وبولندا وتشيكو سلوفاكيا. وفي سنة ١٨٦٠ ترجم في أسبانيا وإيطاليا ثم انتقل منهما بالتدريج إلى بلاد البلقان البعيدة كافة. وبرغم أن معرفة آسيا لأندرسن معرفة طفيفة ومبعثرو فأنه يجدر بنا أن نقول: أن اليابان الحديثة تهتم به اهتماما كبيرا.



إحدى الطبعات اليابانية لقصة "البطيطة القبيحة".. ويبدو الطابع الياباني واضحا في الرسم

وإذا أردنا أن نستقصى حظ أندرسن في البلاد المتاخمة للدانمرك والتي عكفت على ترجمته أكثر من أي مكان آخر، فلابد أن نذكر أن أغلب

المترجمين قد اهتم أولا برواياته، ثم بأقاصيصه الأسطورية. ولقد كان بعض هذه الترجمات رديئا والبعض الآخر جيدا غير أن كلتيهما كانت على أية حال أساسا لغزو أندرسن للغات الأخرى كافة.



"البطيطة القبيحة" أيضا — في الطبعة الأسبانية

وفي نهاية القرن التاسع عشر بدا التصرف– على نطاق واسع– يبدو في كتابات أندرسن، وبرغم أن قلوب الأطفال قد تفتحت له في جميع أنحاء

العالم، فإنه فقد بسبب هذا التصرف مركزه كعلم من أعلام الأدب وبدا الاحترام لمكانته الفنية يضمحل شيئا فشيئا.

ولقد كان لهذا التصرف في أقاصيص أندرسن ما يبرره، فقد بدا من الصعب على أية حال نقل اللمسات الدقيقة التي اتسمت بها طريقة أندرسن الجديدة في الكتابة، وكذا التعبيرات القوية التي كانت من خصائص اللغة الدنماركية، كان من الصعب نقل ذلك إلى اللغات الأخرى.

ولسوء الحظ أن «الحدوتة» لم تكن هي كل شيء في أقاصيص أندرسن. وفي هذا المعني يقول «كاج مونك» الناقد الدنماركي: «أن التأليف الأدبي نوعان: أدب لتسلية القاريء، وهو سريع الزوال، وأدب واقعي عميق له طابعه الباقي في الحياة، ويمكن أن يكون في الوقت نفسه مسليا. وقد يبدو لأول وهلة أن الأقصوصة الأسطورية لابد أن تكون من نوع الأدب الأول، ولكن أقاصيص أندرسن تمتاز بالطابع الواقعي، وبالأصالة والعمق أيضا، وذلك برغم ما فيها من تهاويل وزخارف.. إنها الحياة.. الوجود.. الخلود.. وبرغم ما يبدو فيها من خفة وبساطة، فهي عميقة جادة».

بهذا نرى أنه ما من كاتب أسيء إليه بسبب ترجمة كتبه كما حدث لأندرسن، فأسلوبه يمتاز بالقوة والإيجاز، وبصلابة قد تبدو– أحيانا– عنيفة تند عن أفهام الصغار..وإن في عباراته مزيجا من الفكاهة، والتهكم والمرح، وقد تصل في قوتها إلى حد التوقد والشاعرية ولكنها جافة دائما. ولهذا فترجمة أعماله الأدبية فقدت الكثير من أسلوبه. فليس فيها طابع القوة

والجفاف، وليس فيها ذلك المزيج من الفكاهة والتهكم والمرح.

وفوق ذلك فقد عمد المترجمون إلى انتزاع الفقرات الوصفية التي تخلو من الحركة، ثم أنهم لم يكتفوا باستئصال كل التفاصيل التي يصعب فهمها على غير الدنماركيين، بل أنهم رفعوا كل التفاصيل على الأطلاق، وتمادوا في هذا حتى نزعوا أيضا بعض الأحداث الهامة بالنسبة لهيكل القصة. ولقد وصلت بعض قصص أندرسن– بعد ترجمتها– إلى عشر حجمها الأصلي الذي كتبه أندرسن.

واستمر في القرن العشرين هذا الهدر لقيمة أندرسن الأدبية برغم ظهور قلة من المترجمين الأمناء الذين أضنوا أنفسهم في تصحيح هذا الخطأ الكبير. وما زالت قصصه الأسطورية– دون سائر أعماله– هي التي تحظى بتسليط الضوء عليها في جميع أركان الدنيا. أما رواياته وكتب أسفاره وتراجمه الذاتية وخطاباته فما زالت ذات عالم محدود.

إن أندرسن من ناحية «الكم» يحتل مكانة لا ينازعه فيها سوى الكتاب المقدس وشكسبير.. أما من ناحية «الكيف» فهو ما زال في حاجة إلى مزيد من الاعتراف والتقدير ليصبح أحد أعلام الأدب العالمي وليس مجرد كاتب ناجح لقصص الأطفال، أو كما يطلق عليه، «البطل العالمي للأقاصيص الأسطورية».

مصادر الكتاب

المصادر الأجنبية

1. Hans Christian Andersen, his life and work by various writers. (Copenhagen, 1955).
2. Six Fairy Tales by H. G. Andersen: ed, by Bo Grond-eech and Erie Dal. (Copenhagen, 1955).
3. Everyone's History of French Literature by Firm in Roz.

المصادر العربية

١ – هانز كريستيان أندرسن، تأليف: رومرجودين، ترجمة: حسين القباني.

٢– أقاصيص هانز أندرسن، ترجمة :محمود ابراهيم الدسوقي.

٣– أساطير من الشرق والغرب ، تأليف :سليمان مظهر.

٤– بعض المقالات المتفرقة.

الفهرس